روايات رومانسية عالمية

عبير

مارغريت واي

مندلا

www.elromancia.com
مدفورية

مكتبة جرير

مارغريت واي

روايات رومانسية عالمية

عبير

مندلا

وسمح
لنفسه باطلاق ضحكة منخفضة
بينما ركز عينيه على وجهها الحالم
والحزين وقال لها هل تستمعين بلعب دور بطلة
احدى الروايات يا كاترين ؟ كاترين كرر اسمها مرتين
ففتحت عينيها بسرعة لترى الضوء ينعكس على ثوبها بشعاع
ذهبي جعلها يبدو مثل وردة صفراء وقالت له بتهذيب شديد
ارجو المعذرة فلا بد انني شردت بأفكاري فيما لا اريد ان اعاني
من شعوري نحوك . علق بلطف لا تتفوهي بكلمة أخرى .
وعاشت في عالم خادع من الأمل برهة، ورفعت رأسها
لتتأمله وقد حبست أنفاسها أمام نظرته. وقالت
دون تفكير من الواضح ان شعورك
مختلف.

مكتبة زهران
جمهورية مصر العربية
١٥ شارع الشيخ محمد عبده - خلف الجامع الأزهر
ت : ٥١٤٢٩٥٥ - موبايل : ٠١٢٣٢٨٦٤١٨

١ ـ حاول كوين أن يمنع زيارة كاترين، إلاّ أن خالته أصرت عليها لقلقها على الفتاة. خضع كوين للأمر، وقرر أن يذهب لاستقبالها بنفسه ليحول دون لقائها بشقيقه المتهوّر.

نظرت ايلينور عبر الطاولة الى رأس ابن شقيقتها المنحني. ليست الفرصة مؤاتية الليلة لطرق الموضوع. الا ان مجال المناورة امامها ضيق. فالسنة المدرسية تنتهي في الاسبوع القادم. وليس للطالبة مكان تأوي اليه. وحتى لو توفر المأوى للفتاة اليتيمة المسكينة، فان حافزاً قوياً يدفع ايلينور لوضعها تحت وصايتها. وأطبقت السيدة الشقراء، الشفافة بنفسيتها والصابرة على قسوة الظروف، عينيها متضرعة. وصعدت صلاتها بعذوبتها المعهودة وتواضعها الذي يبلغ مسامع العلي ويحظى بعونه. ولم تغب عن ذهن ايلينور حقيقة انها ولدت لتكون من صنف الملائكة، خصوصاً وانها أنكرت ذاتها

لسنوات طويلة.

اما كوين، فبدا الآن شخصاً آخر دون أن تعوزه القوة، بل الواقع ان هالة من الجبروت والرجولة والاقدام والحزم احاطت بشخصيته. ويسهل على المرء ان يلمح مرحه الجم وحساسيته الشديدة، وهما صفتان لم تتح له الظروف اظهارهما في هذه الأيام. والسبب المباشر لذلك هو وفاة والده جستن، علاوة على الميراث الضخم، بل المسؤولية الكبرى التي اثقلت كاهله. وما اعظم ان يكون مسؤولاً عن مندلا مراعي الماشية الشاسعة الممتدة على أطراف قلب استراليا المقفر، والتي تملكها اسرة ماكميلان. مندلا! ونفخت ايلينور نفخة خفيفة حتى لا تزعج كوين لأنه استحال عليها تجاهل هذا الرجل القوي والنشيط الى اقصى الحدود. ثم تاملت خشب الصاج اللماع الذي صنعت منه الطاولة، وأزالت ذرة غبار وهمية. لقد نذرت عشرين سنة من عمرها لخدمة مندلا، وشاخت وهي ترعاها. الا انها ما زالت تشعر انها غريبة في ارض غريبة. كيف وصفها والدها؟ انها اجمل بقاع الدنيا وأشدها محلاً. ومع ذلك، فانه قدّم ابنتيه فداء لها. واستشهدت سارة. فحلّت ايلينور محلها قيّمة على عهدها ووصية على ولديها.

ورأت ايلينور في مندلا ارضاً شاسعة تزهو بألوانها الضاحكة بين قحط وحرّ من جهة، وفيضانات متفرقة تحول السهول الفسيحة بحراً مزعجاً كبحار ما قبل التاريخ من جهة ثانية. ولم تشاهد ايلينور في مندلا، التي تشغل مساحة متناهية في الاتساع تمتد آلاف الكيلومترات المربعة، والتي يعرف كوين تضاريسها كما يعرف مداخل ومخارج مسكنه، معلماً واحداً من معالم المدنية والاخضرار الا في منزلهم وما يحيط به من مبانٍ وأراض. وما أعظم هذه الثروة الموجودة وسط المجاهل حيث يتراقص السراب! يا لها من ارض غريبة لها قوة السحر! لقد تاهت فيها ذات مرة قبل سنوات. ولم تكد تمضي ساعات على ضياعها حتى كادت تجن لو لم يعثر عليها خادمان من

خدم المنزل. ومنذ ذلك الحين لم تنس ابعاد هذه الأرض المخيفة التي تغلب عليها الحمرة في صخورها الشاهقة اذ تنخفض حتى تصبح أودية ضيقة لها لون الليلك. وفي المنحدرات المطلة على كثبان الرمل تموج جداول المياه كالشرايين. والحقيقة ان طبيعة الأرض ومناظرها بدت لها غريبة على الدوام ومع انها أقرّت بعظمتها وروعتها، فانها لم تغير موقفها منها. واستطاعت ان تحيا... وذلك على عكس شقيقتها سارة... في ارض تعادي النساء، في ارض خلقت للرجال حيث تعتبر القوة الجسمية والقدرة على احتمال المشقات عنصراً حاسماً للبقاء.

ولا عجب اذن ان يصبح كوين، وهو في الثانية والثلاثين من عمره، صلباً صلابة الكتل الصخرية الصماء عند طرف النهر الشمالي. انها قلاع قديمة ومهيبة تنبض بالحياة الاسطورية التي تصورها الأحلام. ولم يكن كوين أقل اسطورية منها وهو العريق الممتد بنسبه الى آل مكميلان. وما أكثر المناطق الريفية المنعزلة في استراليا التي حملت اسماء أسر قدمت من ويلز، أو اسكوتلندا أو ايرلندا، وذلك لأن افرادها رجال استهواهم الخطر، وأغوتهم المغامرة والأرباح. فغدا بعضهم من عظماء التاريخ، وبعضهم الآخر رموزاً مأساوية وفريق ثالث من الأسماء المثيرة للهزء، وقليلون منهم محاهم النسيان...

والتمعت بشرة كوين تحت وهج المصباح الكبير وكأنه تمثال من البرونز. كان جلده صقيلاً، في حين تميز شعره المجعد بالسواد البارز بين كل أفراد آل ماكميلان. اما حاجباه الأسودان فعقدا فوق أنف أشم وعينين سوداوين نافذتين يتطاير منهما الشرر وتظللهما أهداب كثيفة.

وتابعت ايلينور تحديقها الى كوين كأي امرأة اخرى لشدة ما اعجبت بنزعة الرجولة في هيئته. انها لن تمل النظر اليه، ليس لأنه يشبه والده كثيراً فحسب، بل لأنه ايضاً رجل مكتمل الرجولة لا

يقدم على عمل مهما كان صغيراً . . . قلب صفحة في كتاب مثلاً . . . الا اذا اقتنع به قناعة مطلقة . انه رجل الايجاز والدقة الذي يسعى الى هدفه دون لف أو دوران . وابتسمت ايلينور وقد امتلأت عيناها حنواً لأن كمال شخصية كوين يثير الاعجاب . لقد كان كذلك منذ صغره، وهو الذي لم يتمتع بطفولته وأيام براءته . وارتسم خط ضيق على جبهته، وبالتحديد بين عينيه السوداوين الحادتين والمركزتين على الصفحة الخامسة من تقرير المزرعة . اما يومه، فكان طويلاً شاقاً لم يذق فيه طعم الراحة الا بعد غروب الشمس . وليس الأمر غريباً . لكن لايسي قد أهمل هذا التقرير مرة اخرى . ولم تكن ايلينور بحاجة الى من يخبرها . انها تحفظ كل ذلك عن ظهر قلب . فلايسي غالباً ما يحاول ان يتصرف وهو بجانب شقيقه الأكبر وكأنه الابن الأصغر المدلل . ولا شك انه استمتع بذلك اياماً . وأدركت ايلينور ان هذا التصرف ما هو الا ردة فعل لسيطرة شقيقه . وتعاطفت ايلينور مع لايسي مع معرفتها انه كاد يكون مجرماً . واتجه كوين بحسه المرهف والتزامه بأسرته الى ملء الفراغ الذي أوجده شقيقه .

ولم يكن اي من العمال في المزرعة سيحظى بالصفح ان هو جرّب حيلة من حيل لايسي ماكميلان، الذي كان لا يزال حتى وهو في السادسة والعشرين ولداً طائشاً . ولم يكن هناك اي مبرر له حتى يرهق كوين بالعمل ساعات اضافية كان يمكنه ان يستريح فيها . وبالكاد اتيحت له الفرصة في هذه الأيام ان يمارس هوايته المحببة وهي رياضة البولو الشبيهة بلعبة الهوكي، وتمارس عن ظهور الخيل بقذف كريات خشبية بواسطة مضارب طويلة . والحقيقة انه كان ماهراً في هذه الرياضة . وتعاطفت ايلينور مع لايسي المتمرد والجريء الذي لا يتحمل مسؤولية اي أمر . ولم يكن من السهل عليه ان يكون له والد مثل جستن واخ مثل كوين، الأمر الذي سلبه هويته، واضطره للاشتباك مع شقيقه يومياً حتى يتأكد من وجوده وشخصيته . ومن المؤكد انه عانى عقدة معينة ابغضت ايلينور ان تسميها باسمها

الحقيقي . لكنها صلّت يومياً حتى يغدو لايسي الرجل المنشود، والا فانها تكون قد اخفقت . لقد رعته منذ كان في السادسة من عمره، منذ كان ولداً .

أحبت ايلينور ابني شقيقتها . لكنها، على حد تعبيرها غير الشائع، كنّت احتراماً عظيماً لكوين حاولت جاهدة أن تخفيه عن لايسي . وقد وقفت الى جانب لايسي في كل مشاجرة بسيطة . الا انها سارعت الى الاختفاء بلباقة عن المسرح عند نشوب شجار قاس حتى لا يغلبها شعورها بالعدالة ويجبرها على تأييد كوين وتشديد سلطته على شقيقه . وتعبيراً عن سخطه وثورته كاد لايسي يصبح مشكلة من مشاكل الحياة اليومية بأعماله الطائشة العديدة، الخطيرة احياناً، والتي لا يمكن استرجاعها جميعاً . ومع ان كوين لم يكن صبوراً بطبيعته، الا انه اظهر لطفاً بالغاً تجاه شقيقه وعامله معاملة الأخ والأب والأم . وبدا واضحاً الآن ان صبره قد نفد . وخنق صيحة تعجب فيما نظر الى خالته بعينيه السوداوين البراقتين اللتين رقّتا آنياً امام ملامح ايلينور الخائفة .

ـ هيا يا نل . فإمّا أن تتكلمي الآن، أو أن تصمتي . انك ترغبين ان تقولي شيئاً منذ وقت طويل .

رفعت ايلينور نظارتيها، وطرفت عينيها بشكل حاد قبل أن تعود الى رشدها :

ـ عندما تتصرف بهذه الطريقة تذهلني كما اذهلت ذلك المحتال هيلي حين حاول أن يتجاوزك وهو على صهوة الجواد الكبير .

قال كوين بشيء من الجهد :

ـ نل، اعذريني يا عزيزتي . هل هو توسّل من أجل لايسي؟ فهذه التنهيدة التي اطلقتها هي معزوفة البداية . والأرجح انك لن تفلحي هذه المرة . لكن من الخير أن تجربي .

اجابت ايلينور وقد تبسمت قليلاً :

ـ كلا . لست أقصد لايسي .

تأمل كوين التقرير ثانية، لأنه دهش من المغالطات الموجودة فيه.

- نل. تعرفين يا عزيزتي اني لا استعجل في أمر. لكنني مشغول. وانت تعلمين انني لن انهشك. فقولي ما تفكرين به.

علّقت ايلينور بصورة جدية وفرحت اذ سمعت ضحكة كوين الجذابة:

- لكنك قد تفعل يوماً. هل تذكر مويا؟

رد كوين، وقد ضاعت من رنة صوته كل المتعة:

- مويا فيتسجرالد؟ ومن لا يذكرها؟ وما دخل هذه المرأة السخيفة بحديثنا؟ من المؤكد انها لم تتصل بك مجدداً، أليس كذلك؟

وعاد يقرأ التقرير مغتاظاً، ومستغرباً ماذا سيسمع أيضاً. من الطبيعي ان تتصرف نل بحكمة، والا تزعجه بمغامرات بابلز فيتسجرالد المقيتة. وبابلز تنتسب أصلاً الى آل ماكميلان، وقد تزوجت مرتين حتى الآن. وهنا قالت ايلينور:

- الحقيقة اني تلقيت منها رسالة طويلة، وذلك على غير عادة مويا.

وعقب كوين بلهجة مهددة، وكان هذا الخبر في مثل هذه الليلة هو القشة التي تكسر ظهر البعير:

- انها لن تزورنا هنا!

- ليست مويا التي ستزورنا، بل كاترين. كاترين، ابنتها الشابة ستزورنا.

فهتف كوين بحنان:

- هذه الطفلة المنبوذة! التي تنقل من مدرسة داخلية الى أخرى، وتعيش عند أقاربها متنقلة بين منزل وآخر. اني اشفق عليها.

- كنت أعلم انك تشفق عليها.

وشهق كوين شهقة مخنوقة. ثم قال:

- يخيل الي اني اخذت عهداً على نفسي. فما هو؟ هل ترغب في قضاء عطلة الصيف الطويلة عندنا؟ لا شك ان دورنا قد حان. ولكن، في أي حال، انه من الخير لها ان نكون بعيدين عن المدنية... أو ما تسميه بابلز مدنية.

ولما لفظ اسم بابلز، طغت سخرية شديدة على نبرة صوته. وابتسمت ايلينور بينما تراقصت أمام عينيها رؤى محمومة. لقد عاشت مويا فيتسجرالد حياة اجتماعية موفقة وصاخبة. فتزوجت أولاً بكونت ايطالي. اما زوجها الثاني، آشلي فيتسجرالد صاحب المواشي الثري، فقد تحطمت طائرته في مكان ما من مرتفعات غينيا الجديدة، وضاع كل أثر له. وقال البعض انه هرب من زوجته الجميلة والجموحة الى أقصى حد تبلغه امرأة في عالمي الحسن والتحرر.

- ما هي الا قريبتك يا عزيزي.

هكذا كلّمته ايلينور عندما رأته يشغل فكره بأمور اشد أهمية، وهو الذي يواجه الف معضلة ومعضلة في عمله في ادارة مزرعة كبيرة. عندئذ دفع ملفّه امامه على المنضدة. وصاح:

- هل تذكّرينني؟ امضي في حديثك يا نل العزيزة. ان مويا تريد ان تودع ابنتها هنا.

- هذا هو الواقع بالضبط.

- وكم ستطول اقامتها؟ ولو كانت مثل أمها السخيفة المزهوة، لعجزت الخيول عن ابعادها من هذا المكان.

فلاحظت ايلينور ببعض الاندهاش:

- لا تنسَ ان كاترين ما زالت طالبة.

- هذا هو الأمر الوحيد الذي يدعو الى التفاؤل في القضية. ولو كانت شخصاً آخر، لما قبلت الفكرة. والحقيقة انه لا يمكنني ان افهم كيف تتنقل أمها دوماً وقد تزينت بكل ما عندها من جواهر وحلى. في

أي حال، كم هو عمرها؟ اقصد الأبنة. فمويا سيدة مدللة وقد تخلصت من ابنتها وابعدتها عنها منذ ولادتها تقريباً.

دهشت ايلينور. الا انها أجابت:

- لا شك ان كاثرين في الثامنة عشرة من عمرها الآن. وأنا ارسل لها هدية بمناسبة عيد ميلادها في كل سنة من شهر آب (اغسطس). ومما يسهل علي حفظ الموعد كونه يقع بعد احتفالات الخيل الموسمية بسبعة اسابيع. ولدي هنا اسم الدير.

ومدت يدها الى الطبق المعدني الموضوع فوق خزانة الاطباق والفضيات حيث كانت قد أودعت تحت غطائه رسالة من سبع صفحات خطّتها مويا بعجلة. وكادت تهوي عن كرسيها لانها لم تتوقع ان ينفجر كوين ضاحكاً بسخرية شديدة.

- ابنة مويا في الدير! هذا رائع حقاً! كيف امكنهم اقناع الراهبات بقبولها؟ لا ريب انهن يتقن الى العقاب توقاً شديداً.

اجابت ايلينور وهي تقرأ رسالة مويا المربكة:

- اذكر ان مويا ايضاً ذهبت الى الدير. وغالباً ما ترددت على الراهبات طلباً للنصيحة. هذا غريب، لكنه صحيح. فالحياة تنحى منحى غريباً. ومن غرائبها ان يكون لمويا ابنة، وان ينتهي العام المدرسي في الأسبوع المقبل.

وبدا الاضطراب والذهول على وجه كوين:

- يا إلهي! من تحسبينه قادراً على احضارها؟ اني مشغول كثيراً.

- وماذا عن لايسي؟

وخطر له مئة جواب. ان لايسي لا يتحمل مسؤولية اي امر. وهو لا يهتم لراحة أحد من البشر. الا ان كوين تحدّث برقة الى خالته:

- اذا كانت الفتاة حلوة، ولا شك انها كذلك وأمها هي بابلز، فمن المحتمل ان يهربا معاً. ولايسي ينزع الى الغرابة في سلوكه. ولن

يمكنني ان انقذ الفتاة من مصير أشد شؤماً من هذا. على اني لا أتصور ان يكون لبابلز ابنة بريئة وساذجة كلياً.

وتنهدت ايلينور يائسة من مجرد التفكير بالأمر:

- يا للسماء. يا للسماء.

وردد كوين بينما رفع ذراعيه ومدّهما فوق رأسه:

- ادركت ساعة نهضت اليوم انه سيكون يوماً متعباً. ليس بمقدورنا ارسال لايسي وابقاء الاوضاع تحت سيطرتنا. علي ان اذهب بنفسي.

قالت ايلينور وبريق عينيها يزداد حدة:

- أتذهب انت؟ انك لحصن قوة ومصدر ثقة.

- لا تتملقيني يا نل. اذا كنت حصن قوة، فانني بدأت أهوي.

ردت ايلينور مشددة عزيمته ومؤكدة:

- كلا. ابدا يا عزيزي. اني اعلم ان الأمور سيئة للغاية. وانك لطيف. اما الطفلة المسكينة، فبالكاد تدري شيئاً عن حنان الاسرة وتضامنها. الحقيقة انها لم تعرف هذه المشاعر معظم حياتها. ولن اعجب اذا كانت تشعر بكآبة بالغة.

أعلن كوين محذراً:

- ارجوك يا نل الا تتمادي في أقوالك. فمن المحتمل ان تكون سعيدة للغاية.

- هذا غير وارد يا عزيزي. ان حدسي لا يخطىء احياناً.

وابتسم كوين ابتسامته البريئة الجذابة:

- أمر مسلم به. كما ان لديك حيلاً ومكائد كثيرة جاهزة. اطمئني. فاني سأنقذ فتاتك اليتيمة من وضعها البائس في أحد أغلى اديرة استراليا. ومن البديهي ان هذا الأمر لم يكن مقبولاً في أيام والدي الذي أذكر انه قال ان بابلز فيتسجرالد تستحق كل ما تبل به. أجل، هذا كل ما قاله.

وارغمت ايلينور على الموافقة على كلامه:

- من المؤكد انها جعلت آشلي المسكين يجنّ وكان شخصاً لطيفاً للغاية، واسع الثقافة وذكياً لأبعد الحدود.

وتأفف كوين. غير انها استطردت بتعقل:

- ليس الحسن كل ما في الدنيا يا بني. ولكن، لقد نسيت ان اطلعك على امر واحد. ستتزوج مويا مرة ثالثة. اجل، انها ستقترن باميركي جنوبي من الارجنتين. واغرب ما في الأمر انه من أصحاب الماشية.

وهزّ كوين يده في ايماءة عنيفة. ثم وقف بسرعة بالغة:

- ارجو المعذرة يا نل لأني لا اقدر على تحمل المزيد. لا تغضبي. واني ادرك انه لا بد من تقديم هذا المعروف. لذلك سأسعى لتنفيذ مشروعك. ومع اني اتصور ان الأمر قد ينقلب علينا جميعاً، الا ان على الانسان ان يقبل ببعض الامور مكرهاً. واني على استعداد لأن اخطو خطوة اخرى واذهب لاحضار الطفلة بنفسي، مع العلم ان من واجبنا الكف عن مناداتها بالطفلة لأنها فتاة مراهقة، بل تخطت سن المراهقة، وخطرة ربّما. واني اتصور قيام بعض الصعوبات. لكننا مدينون لها بالكثير.

وتطلع الى خالته مقطباً بصورة مضحكة:

- اذا اسعفنا الحظ، ربّما تكون فتاة قانعة لها وجه اشبه بوجه الحصان. وهذا لن يثير اهتمام لايسي.

رددت ايلينور وقد اذهلها الخوف:

- اني لم افكر بذلك وحق السماء. وهذا يوحي بتقدمي في السن. لكن، علينا ان نفكر يا عزيزي انه مهما كانت نادرة الحسن، فانها لم تفسد حتى الآن بالمغازلة. وقد عبرت عن ذلك بنفسك حين اكدت انها تعذبت كثيراً بانتقالها من مدرسة داخلية الى اخرى. ولم تستقبلها مويا في منزلها.

عقب كوين بتانٍ:

- انّ هذا للطف عظيم، أليس كذلك؟ ان حياة مويا قد لا تكون اكثر من منفى او محاولة غدر لبراءة الاطفال.

وبرق وميض الحنان على وجهه، ثم اختفى. وكان شعور كوين نحو النساء واضحاً وعفوياً مثل شعوره نحو الخيول، علماً بان ايلينور وجدت انه يحب خيوله، وانه لا يكرس وقتاً كافياً للنساء. واستدار ببعض العصبية والعجرفة. انه رجل رائع. هذا ما اضطرت ايلينور ان تؤكده. ثم قال بلهجته الهادئة المزعجة:

- عندما احضرها الى هنا، سأغسل يدي من الأمر باكمله. لقد تعلمت ان النساء شر. وان اي فتاة تكون ابنة بابلز فيتسجرالد هي شر مضاعف. وان لدي هموماً كثيرة هذا اذا استثنيت هذه القضية الانسانية.

واكتنفت ايلينور نشوة مطمئنة. وابتسمت بعذوبة لا تقاوم، فيما بان قلبها في عينيها:

- شكراً لك يا عزيزي. اني استطيع الخلود الى النوم والسكينة الآن.. فلقد اقلقني الامر كثيراً ليس لأن مويا أسدت الينا معروفاً... أو الى اي شخص آخر. واراهنك ان كل ما تحتاجه هذه الطفلة هو الحب والاستقرار. واني أعرف كاثرين. لذلك اتوقع ان نفرح جميعاً بوجودها هنا.

لم تبارح عيناه السوداوان اللامعتان وجهها ابداً:

- هل خطر لك انها ستشكل خطراً وتهديداً علينا هنا؟ ولو كنت مكانك لسألت رأي الراهبات بها، رغم انني اتوقع ان يخفين عنا الحقيقة حتى يتخلصن منها.

فاعترضت ايلينور قائلة:

- كلا. اني واثقة اننا نعمل ما هو خير وحق. وقد صليت وابتهلت حتى نوفّق.

- يا إلهي!

أصرّت ايلينور على رأيها وكأنها تريد فرضه:

- لا شك ان كاثرين ستتصرف تصرّف الاولاد المهذبين المطيعين. ولا تنسَ ان والدها كان لطيفاً جداً.

ردّ كوين بحدة:

- هذا ليس أهم ما في الأمر. فبالرغم من لطفه الظاهر، ابتعد وترك ابنته وحيدة تجاهد بمفردها. صحيح انها تملك مبالغ ضخمة من المال، وتلقى أفضل عناية وتدرس في أحسن المدارس، غير انها تواجه أزمات كثيرة. انها مسألة أولويات. فمن هو الأهم أو الاولى بالرعاية انت، ام طفلك؟ وليس باستطاعتي الادعاء باني افهم تصرف فيتسجرالد. لعلّنا هنا نقدّر اكثر من غيرنا معنى الكفاح والبقاء.

لاحظت ايلينور بشيء من الغم:

- لكنك تدرك وضعه خصوصاً وان مويا عاملته معاملة فظة للغاية. وهذا أمر غالباً ما يحدث.

- بامكان المرء التركيز على مصائبه كما تعلمين. وهذا ليس بالحل المرضي. أما العلاج، فهو العمل. وطالما اعتبرت الانتحار مبالغة في تصوير المتاعب.

- أننا لا نستطيع ان نجزم في ذلك يا عزيزي.

- لكننا نؤمن بهذا جميعاً.

- اذن، ربما كان تصرفه من هذا القبيل.

- اعذريني على التطرق الى موضوع لا فائدة من طرقه الآن. فنحن نتفاعل بالملمّات بطريقة تختلف من شخص الى آخر. وبامكان اي منا ان يصنف مويا كاحدى الملمّات المعقدة. ومن المؤكد ان والدي فعل ذلك. وأحس ان ابنتها قد تترك انطباعاً مؤثراً.

تفوه بكلماته الأخيرة بايمان صادق جعل ايلينور تبلع ريقها وتحافظ على صمتها. فكاثرين الشابة ستزور مندلا... سواء كان ذلك لخيرها او لشرّها. والى ان يقع نظر ايلينور عليها، ستعيش السيدة الرقيقة بترقّب مخيف...

٢- رأت كاترين في كوين رجلاً قوياً من الصعب اثارته، ولكنها وجدت انه من الصعب أيضاً، ان تُظهر الاحترام بدل التمرد والعصيان... واستطاع كوين ان يدرك من اللحظات الأولى تمرّدها وجموحها!

لم تكن الحرارة تطاق في مكتب الأم دومينيك التي اجهدت نفسها للحفاظ على هدوئها لأن اظهار الغضب والانفعال تصرّف لا يليق بها. ونظفت نظارتيها بدقة قبل ان تبدأ بتلميعهما بالحاح كأن حياتها تعتمد على درجة لمعانهما. واستمرت الفكرة القديمة تراودها...

كانت كاترين فيتسجرالد أشد البنات التي احتضنهن دير السيدة فطنة وأقلهن حياء بمن في ذلك مويا ماكميلان التي رسخت ذكراها في ذهن الأم دومينيك منذ أيام تمرّدها. واشتهرت مويا بأنها شيطانة صغيرة... هذا اذا كان هنالك من شيطان... تتنكر في هيئة ملاك وتقسو في تعذيبها للآخرين. اما ابنتها، فمختلفة. وقد اضطرت

www.elromancia.com

الام دومينيك ان تعترف بهذه الحقيقة لكونها منصفة الى ابعد الحدود. انها اسوأ من أمها من جهة، واحسن منها من جهة أخرى. يا لها من فتاة مليئة بالمتناقضات. فكاترين غاية في الذكاء، الميزة التي لم تدّع امها امتلاكها. الا ان الفتاة لسوء الحظ أبت بصورة قاطعة استخدام تفوّقها الاكاديمي على نحو كامل. فقد كان بامكانها ان تكسب مدرستها جوائز فخرية، ولم تفعل. واغضب ذلك الأم دومينيك على نحو مبرر. فهي تعلّم مادتي العلوم والرياضيات بنفسها. كما ان كاترين تميزت ببراعة في الألعاب الرياضية. لكنها كانت تهرب من المباراة الكبرى حين تتكل المدرسة بأسرها عليها مدّعية حدوث التواء في كاحلها دون ان يتمكن أحد... حتى الفتاة نفسها... من الادعاء بان «الحادث» مقصود ام لا.

هذه هي كاترين. انها لا تريد تحمّل المسؤولية، ولا تريد ان يعتمد أحد عليها. انها الطالبة الوحيدة التي لقيتها الأم دومينيك طوال مدة خدمتها، ورثت مزايا القيادة، وحولت كافة جهودها الى مجالات خاطئة.

انها تستعمل تأثيرها الكبير على زميلاتها بطيش. غير ان الام دومينيك الصبورة المتسامحة لم تهددها مرة بالطرد مع العلم انها استفزتها لفعل ذلك مرات عديدة. ولا شك ان كثيراً من الرؤساء غيرها كانوا فعلوا ذلك. وسمحت ثلاث فتيات، حزن على ثقة الام دومينيك بعد ان امضين فترة طويلة في المدرسة، لكاترين بأن يتبعنها في طيشها. اذ اصطحبتهن الى مهرجان رقص صاخب في المدينة في الاسبوع الماضي. وفي حين اسمت كاترين تصرفهن بالجنون المثير، تحمست الفتيات الاخريات للمشروع حتى بعد ان ألقي القبض عليهن وهنّ عائدات الى المدرسة متسلقات الأنبوب الذي يدفع ماء الغسيل القذر الى الاسفل.

لقد تبدلت المقاييس وتغيرت الاحوال. وادركت الام دومينيك هذه الحقيقة. وقبلت بها. ولم يعد ممكناً زرع مخافة الله في قلوب

الطالبات بالسذاجة المعروفة عن الأيام الماضية. كما انه لا يعقل ان توجه اليهن بعض كلمات قاسية مرفقة بتهديد مبطن حتى يخفضن رؤوسهن حياء وندماً. انهن وقحات لا يتقيدن بنظام، وملابسهن تثير الاشمئزاز، وستورم فيتسجرالد ليست أقلهن في هذا المضمار. ستورم، أي العاصفة.. لقد اطلقت جميع الطالبات وحتى بعض الأخوات هذا الاسم على الفتاة بالرغم من ان الأم دومينيك أوصتهن تكراراً بأن ينادين الفتاة كاترين. وأملت عبثاً ان يترك تصرفها هذا اثراً ملطفاً ومهذباً عليها. ولا شك ان اللقب ناسبها تماماً. فلا أحد يتفوق عليها في اثارة العواصف والاضطرابات. ومن المؤكد ان لقبها افضل من لقب والدتها... بابلز: فقاعات الهواء. وبابلز فيتسجرالد امرأة سخيفة وانانية على نحو لا يصدق. ولكن، يا لها من حسناء، تشبه عرائس الاحلام في ملابسها! وهي محبوبة وقريبة من القلب. حقيقة اضطرت الام دومينيك نفسها ان تقرّ بها. ومع ذلك، فانها لو اقتنعت ابنتها ورفعت شعرها عن عينيها، لأمكنها ان تخطف الابصار المركزة على والدتها. تصرف طائش. فمويا ماكميلان، وهي الوريثة الوحيدة لاملاك اهلها، تعودت منذ نعومة اظفارها ان تحتل صدر المسرح. ولا شك ان محاولة خطف الاضواء عنها محاولة تؤدي الى كارثة. وهي لن تسمح لأحد، حتى ابنتها، بفعل ذلك.

كان وضع كاترين محزناً. وعلى رغم مضايقتها للأم دومينيك احياناً، وألاعيبها الشيطانية واصرارها على رفض ابراز مواهبها، فان الأم دومينيك ظلت على اهتمامها بها وحبها لها. انها ممتازة وتتمتع بشجاعة غريبة ولها افكار تصارع القدر حتى تبرزها. انها لم تعرف معنى السكينة والسعادة والاستقرار في منزلها منذ طفولتها. ولو صقل مظهر كاترين لبدت جوهر الجمال بعينه. اما داخلها، فكانت فتاة ثائرة تشعر بالوحدة والعذاب لأنها أبعدت قسراً عن والديها. وكم كان مفجعاً ان يتوفى والدها. فكاترين محتاجة اليه. ولعلها كانت أثرى الفتيات الموجودات في المدرسة.. الا أنّ كاترين قلّما اكترثت

بالموضوع.

ويبدا الآن ان احداً يريدها... بعض الاقارب. فكاترين ستذهب في العطلة التي تحتاجها كثيراً، الى ممتلكات آل مكميلان الشاسعة في مندلا. وقد سمعت الأم دومينيك بالمكان الذي بث اسمه الرعب في قلبها كما في قلوب كثيرين غيرها. وظهرت صور المزرعة في احد برامج التلفزيون. ووصفت المقاطعة بموطن ملوك الماشية. الا انها سمحت ليلة الامس لطالباتها بمشاهدة فيلم وثائقي عن منطقة ماراتغورا، اي محلّ المياه المحرقة. ولفظة ماراتغورا اسم اطلقه أهل استراليا الأصليون على المكان. وقد تصورت انها تعني الموت السريع. واحست الام دومينيك بارتعاشة بسيطة عندما سمعت كاترين تنفي وجود اي صلة قربى بينها وبين اسرة مكميلان حين سألتها زميلاتها عنهم ولم يرق موضوع القربى لكاترين. انها ذاهبة اليهم دون رغبة فعليّة. ومع ذلك اكتشفت الام دومينيك حماسة خفية لدى الفتاة.

قرعت ستورم فيتسجرالد باب الأم الرئيسة بعد تأخر خمس عشرة دقيقة عن موعدها. ودخلت عندما ناداها صوت الراهبة الهادىء اللطيف. ولم تسمع ستورم طيلة السنين التي قضتها في دير السيدة صوت الأم دومينيك يرتفع غضباً. ولم ترفع الأم دومينيك نظرها باتجاه الفتاة. الا ان ستورم لم تفكر بأن تظهر تبرّمها، او ان تنظر من النافذة. وكانت الرئيسة تقرأ رسالة.

لله ما أشد الحر! لذلك سترفع شعرها وتعقده فور خروجها من هنا. ولوّحت بيدها، فانكشفت عظام وجهها. انها نحيلة، ونحيلة جداً. وبدت أخيراً وكأنها كلّها عيون... عيون واسعة متألقة مليئة بالشكوك والاسئلة. وهل لاحظ احد شيئاً آخر؟ الأم دومينيك؟ لقد أحبّت ستورم الأم دومينيك واحترمتها دون ان يعني لها ذلك الذل او الهوان. ورفعت الأم دومينيك رأسها وكأنها تصغي قائلة:

- حسناً يا كاترين.

اعتذرت كاترين بقولها:

- آسفة يا أم دومينيك. الحقيقة ان الأخت برنارد اصرّت ان أنهي اختباري. ولم يبدُ انها مقتنعة بصدق موعدي معك.

علّقت الام دومينيك ببعض الجفاف بينما هي تتأمل الفتاة بعينين سوداوين صابرتين:

- لا حاجة للاستغراب. في أي حال يا كاترين، ألم يكن بامكانك ترتيب نفسك بصورة أفضل؟ شعرك على سبيل المثال يا عزيزتي.

- شعري مجعد. وهذه البدعة هي الأفرو.

- ان شعرك فتّان يا ابنتي. ولا يمكن لأحد ان يعرف اذا أعملت الفرشاة فيه مرة. كما انه من المؤكد ان هذا ليس أحسن أثوابك. ولا تنسي انه قصير.

أوضحت كاترين:

- انني اكره التنانير القصيرة يا حضرة الرئيسة.

- انها مسألة قياس فقط. رتّبي ملابسك كما يليق بفتاة مجتهدة. فالسيد مكميلان سيحضر بعد ظهر اليوم، وهو كثير المشاغل على ما أفهم. بامكانك ارتداء ملابسك. وذوق أمك لا غبار عليه.

عقبت كاترين باقتضاب فيما أنهت جملتها ببعض الايجابية:

- ان مئزري يؤدي الغرض المطلوب. ولا تنسي ان والدتي ليست هنا حتى انفذ رغباتها دوماً.

وعبّرت نظرتها عن حزن شديد وألم ويأس. واعتبرت الأم دومينيك ان على مويا فيتسجيرالد ان تجيب على اسئلة كثيرة ليس أقلّها طردها الضمني لابنتها من منزلها. فما نفع الملابس الفاخرة في حين ان ما يحتاجه الانسان هو الحب والرعاية والشعور بالانتماء؟ ومعروف ان البنات الأخريات اعتبرن ذلك امراً مفروغاً منه تماماً مثل التنفس.

وأدهش جمال الفتاة الأم دومينيك. صحيح ان كاترين لم تكن آية في الحسن، لكنها ذات مظهر يوحي بالرقة والتهذيب خصوصاً عندما

تصارع نفسها لاعلان سخطها وتنكرها لخلفيتها ومجتمعها القائم على عبادة المال. يا للفتاة البائسة التي لم يترك أمامها امل واحد، ولو خادع، بأمها التي تملك مالاً وفيراً، وعدداً كبيراً من الازواج والمحبين، والكثرة في كل شيء. وطالما خافت الأم دومينيك ان تدفع كاترين ثمن كل ذلك. قالت كاترين بصوت صغير صاف:

ـ اتذكرين يا ام دومينيك عطلة الفصح الماضية؟ أتذكرين الأيام القليلة النادرة التي اقتنعت والدتي فيها باستقبالي في منزلها؟ لقد كانت كارثة لا توصف. وكم فرحت بعودتي الى الدير. تصوّري! ان نمط معيشة أمي لا يلائمني. ولم يعد بمقدورنا تغيير نوع العلاقة لأنها اصبحت جامدة كالأسمنت وقد تأخرنا.

صاحت الام دومينيك فجأة:

ـ اذن عليك ان تتصرفي بحكمة وشجاعة وتقبلي الواقع حتى تتمكني من تخطيط حياتك. وأنا أعرف تماماً يا كاترين انك تعتبرين سلوك والدتك خروجاً على اصول الأيمان. كما انها لم تبذل أي جهد للاتصال بك على أي صعيد. ربما لا تقدر! هل خطر لك ذلك على بال؟ وربما لم تكن تتمتع بنعمة الأمومة على الاطلاق!

واعترفت الأم دومينيك ان كارثة عطلة الفصح كانت نتيجة حتمية لخطئها. لقد أصرّت هي بنفسها ان تحضر مويا وتصطحب ابنتها. ولم تفهم كيف لا تخصص أم وقتاً كافياً لابنتها. الا ان الخطأ كان جسيماً. ولم تكن بحاجة الى برهان أسطع من وجه كاترين.

وقالت الأم دومينيك بهدوء:

ـ ان الحياة رحلة نقوم بها مهما طالت او قصرت. ولا مجال امامنا لكي نقوم بها ثانية. فلا تثقلي نفسك بهذه الأمور. واذا كنتِ قد فقدتِ علاقة المودة مع والديك، تذكّري ان أمامك فرصاً اخرى. فانت من الفتياتِ المحظوظات بذكائك وسلامة جسمك. والمال لا يهم يا كاترين مع انه نعمة بحد ذاته احياناً. وبمقدورك متابعة دراستك الجامعية. ابني نفسك وعيشي حياتك بهدوء وفكري

بمستقبلك على انه نهر، فإمّا ان يحيد عن مساره ويضيع في الرمال، واما ان يستجمع قوّته ويندفع هادراً زاخراً بالحياة.

ـ انك تصورين الحياة وكأنها عالم نجتازه يا أم دومينيك. انها مليئة بالمخاطر والخداع والانهار الواسعة والشلّالات.

ـ انها كذلك يا كاترين في بعض نواحيها. وعلى المرء ان يرسم خطة لأفضل طريقة يواجه بها الحياة. وانت لست ممّن يتوهون عن الحقيقة رغم انك لا تحبين مواجهة الأمور دوماً.

ـ لقد قبلت حقيقة اني أواجه الحياة بمفردي يا حضرة الرئيسة. وأرى اني فعلت ذلك منذ أمد بعيد. هل تتصورين ان امي اعتنت بي مرة؟ وهل احتضنتني؟ ام هل ان هويتي وهم آخر مثل بقية حياتي؟

ولفّهما الصمت لحظة، بينما تأملتها الام دومينيك بعين مجرّبة:

ـ انك تعرفين هويتك على حقيقتها يا كاترين. واذكر اني علّمت بنات لسن على مستوى درايتك. لذا أنصحك يا عزيزتي بنسيان الأيام القاسية وتذكّري ان عليك معاملة اولادك بطريقة مختلفة.

ـ سوف أفعل ايتها الام الرئيسة. لا تقلقي من هذه الناحية.

ـ أعلم يا كاترين. انني أثق بل اؤمن بك. وهذا ليس بالشيء الجديد رغم أنك حاولت بعناد ان تغيّري رأيي فيك. ولك الآن فرصة الايمان بنفسك. ولا بد ان تكون عطلتك في مندلا اختباراً رائعاً بالنسبة لك.

ارتعشت كاترين مثل ورقة تهزّها الريح:

ـ لا استسيغ فكرة مقابلة أي منهم يا حضرة الرئيسة.

تنهدت الأم دومينيك ازاء كراهية الفتاة لآل مكميلان:

ـ كاترين، تعلمين جيداً ان لا رسالة تعبّر عن مشاعر أصدق وأحر من رسالة الآنسة ايلينور كندي. ولا حاجة بنا ان نقابل هذه المرأة الممتازة حتى نتأكد من طيبة قلبها ومرحها... هذا المزيج الذي لا يقاوم من الخصال الحميدة. واني على ثقة من انك ستسعدين اذا

تخلّيت عن سخطك ومشاعرك الحاقدة. وهذه صفة غير مشكورة في أية فتاة. إنها تزعجني.

وعقّبت كاترين:

- مندلا ملك لآل مكميلان. وما ايلينور سوى خالة للأخوين مكميلان.

- ماذا تقصدين؟ من المؤكد انك لا تريدين القول بأن الآنسة كندي لا قيمة لها. انها امرأة رفيعة الشأن.

أصرت كاترين على موقفها:

- من المحتمل ألّا يريدني الآخرون. وربما لقّنتهم فكرة القبول وهي السيدة المسنة اللطيفة الراغبة في المساعدة. ولو انها انتمت الى آل مكميلان، لادّعيت بأنها ابتزت قبولهم ابتزازاً. والجميع يعرفون من هي والدتي، أسطورة عصرها. ولا اعتقد ان صفحة واحدة من مجلات المجتمع المخملي السخيفة خالية من ذكر مغامرات بابلز فيتسجرالد. يا لهذا الاسم! والآن، اميركي جنوبي. انه لا يحسن الانكليزية حديثاً او فهماً... غير ان هذا لا يهم والدتي. انها لا تتزوجه لحديثه. اني امقته، واود لو أسمّم طعامه. اني امقت كل الرجال لأنهم لا يستحقون عناء الحمل بهم وانجابهم. والارجح اني سأبغض الأخوين مكميلان، لاسيما كبيرهما، أمير الماشية. وانك تعرفين من تجربتك معي ايتها الأم الرئيسة اني لا اخضع للسلطة عن رضى. هل تتصورين كيف سأتصرف مع أثرياء الريف المعتمدين على تربية المواشي؟ لقد شاهدت الفيلم الوثائقي. ورأيت كيف يملكون وكأنهم الحكام المطلقون على آلاف الأميال، بل الأفدنة المربعة.

ردّت عليها الأم دومينيك بهدوء وهي التي لم تستطع ان تفوه بكلمة واحدة لمدة خمس دقائق:

- من المحزن ان أقاطعك وانت في أوج اندفاعك. لكن البراهين تعوز أقوالك. فأنا نفسي تحدثت الى السيد مكميلان بالهاتف. فبدا

لي لطيفاً ومهذباً لا يتسم بالكبرياء والغرور. وهو لا يشدد على الأهمية المحيطة بشخصه.

ولم تقل شيئاً عن نزعة الأمر الآلية التي عبّر عنها صوته، ولكن بجاذبية. عرفت الأم دومينيك بالفطرة ان كوين هو الرجل المطلوب في الملمّات والمحن. وهذه محنة في بعض وجوهها. فهناك شابة ينبغي ان تنظم حياتها الفردية، او ان تتزوج. ومهما قست الحياة عليها اثناء طفولتها، عليها ان تتعلم الدرس وتطرح الماضي وراء ظهرها. لا شك ان والدة كاترين أورثتها جمالها ولا يعقل ألّا تلفت الانظار اليها. وورثت عن والدها فكراً وذكاء. ولا بد ان يعطيها شخص ثالث العاطفة ومشاعر التضامن. فهي بحاجة الى هذا الاطار الأثيري من الاستقرار والأمن النفسي. ومن الضروري ان يسعى أحدهم الى تخليص الفتاة من مرارة طفولتها...

اطمأنت غاية الاطمئنان نتيجة اتصالاتها القليلة بآل مكميلان وساكني مندلا. ولا شك ان تأثيرهم عليها سيكون ايجابياً. والى ان يحين ذلك الوقت عليها وعلى كاترين ان ينتظرا وصول كوين مكميلان. وشعرت الأم دومينيك ان معارضة كاترين مصطنعة، وان حاجتها ماسة. واومأت للفتاة بان تحتل مقعداً. ثم اخذت تحدثها عن موضوع ملائم للدراسة الجامعية بقصد تهدئتها...

والأم مربية موهوبة، في حين ان قدرات كاترين العقلية تتخطّى المعدّل. لذلك سرعان ما خاضتا موضوع النظام التربوي الراهن، واعراض كاترين عن التفكير بالحصول على اجازة تعليمية وامتهان التعليم. وصمّمت كاترين ان تجول حول العالم لتكتشف ذاتها.

وما هي الا ساعة حتى تولت الأم دومينيك زمام الحديث، بينما سددت كاترين نظرة طويلة متفحصة الى الرجل القادم من مندلا.. مكميلان. ان مظهره يوحي بانه من آل مكميلان، وبأنه ناجح في عمله. انه ملك المواشي المتسم بمزايا ممتازة ليس اقلها صوته الهادىء ولهجته الخالية من اللكنات المحلية. انه من النخبة، من أثرياء

الريف. وربما اقتضى الحفاظ على ممتلكاته جهداً كبيراً. غير انه لن يخفق كما يبدو وقد يعتبر غاية في الوسامة. الا ان ستورم انتقدت قوته الظاهرة الشديدة. لم تستطع ان تعرف اذا كانت تلك قوة ام عزيمة. لكنها علمت انه قد يصبح خصماً مزعجاً. ومن ناحية أخرى، يجب الاقرار ان من الصعب اثارته. ومبارزة من هم أدنى منه مستوى ليس امراً وارداً في حسابه. ولن تعدو طالبة المدرسة ان تشكّل تغييراً بسيطاً في الواقع. لم يعطها الا القليل من اهتمامه حتى الآن مع انه لم يشعرها بأنها عبء غير مرغوب فيه. انه يشغل تفكيره بأمور أهم من ذلك بكثير. وقد أصابت كاترين في رأيها. فكل من عرف كوين مكميلان كان سيخبرها انه يعتبر كل ساعة يقضيها بعيداً عن مندلا اضاعة للوقت.

كان أفراد آل مكميلان دوماً يشعرونها بأنها عبء عليهم، أو انها جديرة باحسانهم. لكن هذا الرجل كان مختلفاً. مع انه لم يخالف توقعاتها من جهة أخرى. كان يقف في المكتب القديم الهادىء المليء بالكتب والتذكارات الفضية وصور الخريجات المبرزات وقفة مهيبة... داخل هذه المؤسسة الخاصة بالاناث، على حد قول مليسنت أصدق صديقات ستورم.

لا شك ان حياة مليسنت ستكون بسيطة. انها لا تريد من العالم سوى اصطبل خيول، ومنزل يتوسط أفدنة قليلة من الأرض وزوج ذي اخلاق رفيعة. ولا تنسى ان والدتها كلفت نفسها عناء الاقتران بعشاقها. اذن، لا بد ان للزواج طعماً غريباً. وأمكن لستورم ان ترى فوراً ان مكميلان لم يكن متزوجاً. وبدا لها عازباً حراً لم يختبر الحب في حياته من قبل. ووضعها رغماً عنها في جوّه الخاص حيث الاضواء والحرارة والنيران والفيضانات. كان يتسم بسمرة حادة وسواد لمّاع في عينيه. كانت هي تفضل العيون الرمادية. ولا شك ان هيئته توحي بالمهابة. انه مديد القامة، عريض المنكبين، صلب الجسم يتمتع برشاقة ومرونة الفرسان. كان بعض اصدقاء والدتها يتحلّون ببعض

هذه المزايا، وبينهم كتّاب ورسامون وموسيقيون لا أهمية لهم. والحمد لله ان القائمة خلت من السياسيين. ابغضتهم جميعاً.

وحبست ستورم دموعها لأنها لو بكت، لذهب هذا الرجل. وهي لا ترغب في ذلك. لقد ارادت ان تبدأ بداية طيبة للمرة الاولى في حياتها. لعلها تستيقظ من نومها المسحور وقد تخلّت عن مبادئها، وصممت الا تسبب ازعاجاً آخر لشخص جديد. ومع انها لم ترغب بكيل المديح للرجل، فانها اضطرت للاقرار بانه لم يظهر اي علامة على نفاد الصبر بعد الرحلة الطويلة التي قام بها من اجلها. صحيح انه لم يظهر حماسة، لكنه لم يتذمّر. بل اكتفى بقبول الواقع بسرعة. مدهش! اخيراً اضحت واحداً منهم، من اسرة مكميلان الكبرى السعيدة، وبكل بساطة. ولم تفطن ستورم الى انها تخلت عن موقفها العدواني المتمثل في ارسال شرارات نار متقدة كانت تظنها الطريقة الوحيدة للدفاع عن نفسها...

وتلاشت مقاومة ستورم بعد صراع قصير أمام هدوئه وسلطته المطلقة. وبرزت خاصيته هذه بحدّة جعلت ستورم المتمردة تحس بها فوراً. صحيح ان الغابات مليئة بالرجال، الا ان هذا الرجل كان قائداً بطبيعته. ولا حاجة لبحث الموضوع. ولعلّ أغرب ما تتذكره الأم دومينيك هو رؤيتها لستورم تصمت لحظات وتكفّ عن الحركة في بحر ضياعها وقلة تجربتها...

كان المشهد جديراً بالفرجة. واذا لم يمعن المرء النظر، لحسب ان ستورم طالبة مجتهدة تسترق النظر من بين خصلات شعرها المتدلية على وجهها. كان المشهد مربكاً. الا ان الأم دومينيك التي أمضت جزء كبيراً من طفولتها في احدى المزارع كانت تعرف الكثير عن الخيول لاسيما الجواد الذي يتمرد احياناً. وقد لا تعدو هذه اللحظات المليئة بالاذعان والطاعة ان تكون هدنة. لكنها انعشت قلب الأم دومينيك واراحت تفكيرها. وتطلعت بلهفة الى أيام عطلتها خصوصاً وان رياح التغيير قد هبت من وراء البحار. والسيد

مكميلان عنصر جديد كلياً يضاف الى خبرة كاترين وينبغي التعامل معه بحذر وانتباه شديدين. ولم يوحِ تصرّفه بشيء من ذلك، بل الحقيقة انه لم يلق عليها نظرة واحدة، ومع ذلك فان شعوراً غريباً بأن كاترين قد ضربت على وتر حساس في قلبه راود الأم دومينيك. وكاترين مزيج من جمال الأنوثة في لحظات هدوئها واتزانها، والشكوك الكثيرة المؤلمة التي لا يطالها عالم الرجال أو سلطانهم.

وشعرت الأم دومينيك بقوته وشدته وبأنه لم يخل من العاطفة الصادقة رغم انه رجل عملي حازم. وطمأنها ذلك كثيراً. ونهضت للأشراف على اعداد شاي العصر رغم انه يسهل عليها قرع الجرس طلباً لاحضاره. ووفرت بتصرفها هذا دقائق معدودة لكاترين مع صديقها الجديد، ولعقلها التفكير.

وما ان غادرت الأم دومينيك الحجرة، حتى تمزقت كاترين شوقاً لفعل شيء ما. لكنها، وهي التي زرعت الفوضى في غرف نوم الطالبات ليلة بعد ليلة، لم تقدر ان تفكر بعمل قد يثير هذا الرجل. ولم يظهر عليه انه يحتاج الى عملية انقاذ لفرط صمته واعتداده بنفسه. وشابه بريق شعره المنعكس تحت أشعة الشمس لمعان أجنحة الفراشة، فيما تلاءم مع شكل رأسه لأنه مجعّد تجعيداً كثيفاً. وبالرغم من محاولاتها اقناع نفسها بالهدوء، فان الحماسة دبّت فيها حتى شعّت في عينيها المحجوبتين بخصلات شعرها. وندمت لأنها لم تحسن ترتيب هندامها. يا لله كم آذتها تصرفاتها احياناً!

كانت مليسنت تقول انها نقطة الفصل بين الفتاة الغبية والسيدة المحترمة. وأدركت الآن ان العنصر الخفي هو نجاحه في التأثير عليها. وله كل الحق في ان يشعر بالاشمئزاز او الرغبة بالابتعاد. واذا ابتعد، فانها لن تفلت من ملل الحياة الدراسية. وادركت انها لم تتحرك حتى الآن الا في نصف العالم. كان هذا الرجل يوحي بأنه جزء من الواقع مما أشعرها بأنها بليدة الحس لا تزال في مطلع صباها. على انها ميزت شيئاً من الكبرياء فيه... كبرياء الانتماء الى أسرة.

وهذا شعور غريب عليها. ومهما فعلت، فانها لن تغضب، هذا الرجل لأن الاعتراف بالهزيمة أمر مستحيل في نظره. ووجدت ستورم صعوبة في ان تعلن ان الاحترام حلّ محل التمرد والعصيان في نفسها...

وأدارت ستورم رأسها عازمة على ابداء ملاحظة عابرة عن الانتخابات الزاهنة وذلك بعد ان اطمأنت الى لطفه وتودّده غير المنتظرين. لكنها فوجئت اذ لمحت ما اعتبرته خطأ بريق انتصار في عيني قريبها الفارع الطول. وأعلنت بقسوتها المعتادة لشدة ما دهشت واغتاظت:

- اذا كان الأمر لا يزعجك، اسمح لي ان اناديك «مكميلان». فهذه أول مرة التقي فيها احد أسياد الريف وجهاً لوجه.

- لست سوى مالك للمواشي يا كاترين.

قال هذا وهو يلوي فمه قليلاً اذ اعتبر خير علاج للسلوك الرديء هو تجاهله.

واعترضت كاترين بحرارة:

- لست مجرد مالك للماشية. ربما وضعت سيرة حول تاريخ العائلة. ستكون قصة شيقة، أليس كذلك؟

أجاب بجفاء:

- انها كذلك. لكن السيرة كُتبت وهي محفوظة في المكتبة القومية.

وحدقت اليه وبريق الاهتمام الفعلي في عينيها:

- يا للسماء! لم أكن اعلم ذلك.

- حسناً. انك لا زلت شابة صغيرة.

لقد أفهمها أنها مغفلة. وحولت بصرها الى طرف الحجرة الآخر مركزة نظرها على صورة رئيس الاساقفة. ونبض قلبها بشدة فيما جف حلقها، وأحست قبضة يدها اليمنى تنكمش وتنفتح دون ان تدري. لقد تعوّدت ان تبرز بذكائها وتتصرف كأنها وحدها في الميدان. لذلك تلعثمت. ولم تدرك ان هذا هو اختبارها الأول.

ولاحظ كل تصرفاتها كما يلاحظ كل ما يمر أمام عينيه. ورأى

قبضتها المشدودة. انها طفلة صغيرة يانعة ولها جمال أمها رغم انها أحدّ ذكاء منها. انها فاتنة بشعرها الحريري الاشقر الكثيف ووجهها البارز العظام حيث تستقر عينان كبيرتان لهما برودة وصفاء الأمواج الصغيرة المتلألئة تحت أشعة الشمس وتكفي ضربة واحدة خفيفة بين كتفيها لتركعها على ركبتيها. واخذت عدوانيتها تتضاعف حتى غدت شبلاً جريحاً يستعد للانقضاض في كل الاتجاهات. وحسب الدقائق قبل ان يستأنف حديثه:

- يخيل الي انك شابة ناضجة وجدية لا تكثرين من الكلام يا كاترين. واني احب هذه الصفات.

فحانت منها التفاتة نحوه لترى البسمة غائبة عن ثغره الذي حاكى فم رئيس الاساقفة جدية. ولشد ما انزعجت اذ انطلق صوتها رقيقاً خالياً من اي تعبير حتى كادت تظن ان صديقاتها لن يعرفنها.

- انه لكرم عظيم منك ان تستقبلني في مندلا.

نطقت كلماتها بقصد اجباره على نفي قولها. لكنه أجابها بلطف:

- انها لغبطة لنا يا كاترين. ان خالتي تتوق الى لقياك. فأنا اشعر انها تشكو من الوحدة مع انها لا تتذمر.

وأخذ يتفحصها بتجرّد بعينيه السوداوين الحادتين وكأنها جواد ينوي تدريبه على قفز الحواجز.هزّت رأسها محاولة اثبات شخصيتها، فتمايل شعرها فوق كتفيها ثم استقر على مؤخرزيها المدرسي. بينما خطر لها للمرة الاولى انها لا تعرف شيئاً.

والتمع شعرها تحت أشعة الشمس النازلة في شكل سهم، وظهرت تموجاته فضية وذهبية. يا لها من خصلة! أية فتاة أخرى كانت ستعقدها بشريط وتردّها الى الوراء. انها تكاد تحجب الرؤية عنها اذ تدلّت على وجهها ولاح التمرد على ثغرها، مما جعل قبضة مكميلان ترتعش. انها لا شك تحتاج بعض التأديب والصفع. الا ان ذلك صعب حين تجلس مرتجفة مثل طفل اسيئت معاملته. وتباينت ملامح جبينها الموحية بعدم الاكتراث وقسمات فمها وعينيها المعبرة

عن الانضباط. لم تكن هذه المظاهر دليل أدب ولياقة في فتاة شابة.

وفهم فوراً انها متمردة اخرى تضاف الى لايسي. ولم يمض اكثر من خمس دقائق في حرم المدرسة حتى اكتشف انها سرّت بلقب ستورم. يا لغرابة الصدف! سيحب لايسي هذا اللقب، وسيدعوها... ستورم الحبيبة. ومن الواضح ان ستورم فيتسجرالد المتمتعة بحماية ايلينور ستوحّد جهودها في العصيان مع لايسي. وسيبتهج شقيقه بالأمر. ولما خطر له هذا الخاطر، اكفهر وجه مكميلان وقطب جبينه.

أما ستورم فعضت شفتها السفلى على غير عادتها اثناء الحديث. وشعرت انه يفتح ثغرة في شخصيتها.

عندئذ صاحت محاولة اخفاء خوفها منه:

- هل رأيتني من قبل؟ اني ستورم.

رد باقتضاب قبل ان يبتسم:

- انك كاترين بالنسبة الي.

تنشقت طويلا وقد دهشت. لم تفكر انه قد يبدو في هذه الهيئة. انها ستجد صعوبة اكبر في معارضته ان هو ابتسم. ولم تقرأ ولو فكرة واحدة خلف هاتين العينين السوداوين البراقتين. الا انها ادركت انه لا يبتسم كثيراً. اذا كان يريد تهذيبها، فانه سيدهش حتماً وذلك لأنها تقصد مندلا في اجازة وليس للخضوع لفترة تأهيل. ماذا أخبرته الأم دومينيك؟ وتلفظت بالكلمات بسرعة كأنها احست بالخيانة:

- ماذا قالت لك عني الأم دومينيك؟

فسأل مندهشاً:

- ماذا يمكنها ان تقول يا كاترين؟ اني لم أكد اتحدث اليها عنك. واني اري كل ما أريد معرفته، سوى ان الأم دومينيك تقول بأن لك عقلاً متقداً بالذكاء.

- في اي حال، لا أحسبني سارافقك. فأنا لا أعرفك.

- بل ستفعلين. آه، أم دومينيك!

ووقف ليتناول صينية الفضّة من يد الراهبة المبتسمة. انها من أجود انواع الفضة، والأطباق من احسن انواع الخزف. اما الشطائر والكعك، فأحسن ما يمكن للأخت انجيلا ان تصنعه. واستاءت ستورم من توزيع الحصص. لماذا توجّه هذه الاشياء اللذيذة الى هذا الرجل آلياً؟ لكنها في اي حال، اعتبرت رجوع الأم دومينيك خلاصاً لها. انها ستكرس صلاة خاصة لمدة تسعة أيام حتى لا تكون الخالة ايلينور كندي شرسة وحادة مثل مكميلان.

وتلقت ستورم فنجان شاي من يد الأم دومينيك وقد أحست بعدم توازن. ثم غرقت في أحد المقاعد وقد غمرها الضياع. ولاحت على محياها النحيل النضر سيماء الاستشهاد الضرورية، مع انها غير مقنعة. ولم تستطع ستورم فيتسجرالد، زوبعة عصرها، الانتظار حتى تبلغ مندلا...

٣ـ في الطريق حدّثها عن مندلا ذات الأرض الغنيّة والمليئة بالغرائب، والطبيعة الساحرة بجمالها وقسوتها. فتنتها قوّته وقدرته الباهرتان... ومع ذلك قرّرت ان لا تسلّم له أمرها!

نظرت ستورم عبر نافذة الطائرة على وسط استراليا المبيض تحت الشمس الحارقة. فبدا قفراً موحشاً جفّفه الحر وأغنت تربته خامات النحاس والحديد. فخافت. لكنها أملت ان تخفي خوفها حتى تحتفظ بماء وجهها لأن الحفاظ على مظهر لائق أمر مهم جداً. وقد تعلمت هذه الامثولة باكراً في حياتها لأنها اقتلعت من جذورها العائلية. والى ذلك افترضت ان آل مكميلان لا يتأثرون بشيء ولو في أحرج الاوقات. ويمكن لمكميلان ان يكون طياراً من الطراز الأول لأنه يجلس مسترخياً وغير مبالٍ أمام أجهزة قيادة الطائرة وكأنهما ينطلقان في رحلة استجمام فوق وادي باروسا... ولكنها لا تنس ان القفر

www.elromancia.com

يمتد تحتها! ولو سقطت طائرتها في هذا القفر المرعب، لضاعا الى الابد وتحولت عظامها المجففة بسبب الحرارة جزءً من تراب استراليا. انها بلاد واسعة في وسط المحيط الهادي غنية بمواردها الطبيعية الهائلة تبشر بمستقبل زاهر مستقر. على ان ستورم شعرت انها زائرة في أرض غريبة، كنملة صغيرة في هذا القفر الفسيح. أين هي اديلايد الجميلة الغنية بالمناطق الزراعية حيث تنتشر الكروم الواسعة؟ فلا أثر للحياة هنا. لا شيء على الاطلاق في هذه السهول المترامية التي لوّحتها الشمس. انها بلاد السقايات على انواعها من الغونا، التي وصل طولها الى مئة وثمانين سنتمتراً، الى ابو بريص، الذي لا يتعدّى الخمسة عشر سنتيمتراً. وهي ترحب بالسقايات والجمال البرية أيضاً. اذ توجد قطعان كبيرة منها تعود في أصلها الى تلك الجمال المقيمة بالقرب من مجرى نهر اونادات. والجمال هي وسيلة النقل والعيش في الصحراء. لكنها مؤذية أيضاً. ولم تتصور نفسها ضحية رفسة جمل او عضة آخر حتى ولو بدا الجمل متعالياً ومتكبراً وساخراً حين يُرى عن قمة احدى التلال الرملية. ولا بد ان بعض الجمال تقيم في منطقة التلال في بلاد مندلا... هذا اذا كان الاخوان مكميلان يطيقان منظرها. فقليلون هم الذين يحبّون الجمال. وعرفت ان بعض كبار مالكي الاراضي يصطادون الجمال ساعة مشاهدتها باعتبارها خطرة ومخربة. على انها تمنّت أن تعثر على احدها حتى تلتقط له صورة فوتوغرافية، ولو كان ذلك عملا مكلفاً وخطراً. لقد توقعت من والدتها دوماً ان تملك صورة من هذا النوع. انها ثرية جداً، وهذا ليس امراً مكروهاً.

وأكدت ستورم انها ترغب مشاهدة احد كلاب الدنغ الاسترالية المتوحشة وتصويره اذا اتيحت لها الفرصة. فمنظر الدنغ البري، اذا قورن بالكلاب الأليفة، في سنّيه الاولى رائع اذ تتفاوت ألوانه بين الذهبي الشاحب والأبيض. والدنغ صديق أهالي استراليا الاصليين ورفيقهم حتى في الاحلام. لكنه شكل خطراً حقيقياً على المستعمرين

الاوروبيين الذين بنوا سياجات تمتد مئات الكيلومترات وسهروا على صيانتها. ومع ان الدنغ حاد الذكاء، فانه مفطور على نزعة القتل ولا يمكن تدجينه. وقد قضى على بني البشر في حالات كثيرة. الا ان أفظع جرائمه هي اختطاف الاولاد الذين يتوهون في غابات الكوينز لاند، لا عجب اذن ان يرتجف رعاة المواشي وأصحابها وهم في أسرّتهم حين يسمعون نباح الدنغ الحزين الحاد. ولعل مكميلان قتلها أو سمّمها، مما يعني انها لن تستطيع ان تلتقط صورة لأحدها. وقررت ألاّ تسأله. وطالما احتدم النقاش في الريف حول صنع طعم للدنغ وفاعليته. ولا ريب ان هناك عدداً كبيراً من الصيادين وناصبي الافخاخ الذين يتقاضون بضع دولارات في مقابل كل دنغ يقتلونه بقصد التخلص من القطعان الضخمة المنتشرة في قارة استراليا. ولم تظن ان باستطاعتها قتل أحد كلاب الدنغ حتى ولو كانت لا تعرف الكثير عن المشكلة ولم ترَ عجلاً أو رجلاً يقتل، هذا اذا لم نقل طفلاً. وارتجفت اذ شلّت قدرتها على التفكير.

بين منطقتها المحبوبة اديلايد الخصبة الجميلة الراقية وبين مندلا، التي تحدّها استراليا الجنوبية، يمتد هذا القفر الشاسع القاحل وهذا الحزام الضخم من بحيرات الملح وهذا البحر الوهمي المتماوج الذي اختفى من الوجود قبل عصور التاريخ. وقد تزود جميع المكتشفين القدامى الشجعان بالمراكب لعبوره. ولو لم تبد خائفة على هذا النحو، لكان المنظر قد فتنها. وتراءى لها ان هذه البوادي البدائية الغريبة البراقة التي يسكنها السراب هي مصدر للموت. وخير دليل على ذلك هو الصعوبات التي واجهت بورك ولز ولايتشارد اذ ابتلي الأول بالمجاعة، بينما اختفى الثاني دون ان يترك وراءه أثراً. ولو قال مكميلان الآن ان هناك خللاً في محرك طائرتها، لطابق قوله مخاوفها. ولقد قرأت قصصاً محزنة عديدة عن وسط استراليا المقفر. ولعل من الخير لها ان ترفع بصرها عن الأرض وتتذكر انها تستقر في الطائرة مجتازة الفضاء. ما أروع الطائرة!

تلوّت قليلاً في مقعدها قبل ان تفك حزام الأمان. ما أشد الحر، وشعرت بالنار تلتهمها. تحوّل لون السماء النحاسي ذهبياً مع الغروب. ربما كانا يطيران، نحو الشمس. وكادت أشعتها تلتهمها فيما آلمت أجفانها. فطرفت عينيها بسرعة تجنباً لحر الشمس بينما سددت نظرة الى مكميلان الذي قال:

- اطمئني يا كاترين. فحياتك لن تنتهي عما قريب بصورة مأساوية. ومع ذلك لم تنطقي بكلمة واحدة منذ عشرين دقيقة.

أوضحت بمكر وقد زاد وهج الشمس بريق عينيها:

- يا له من عالم جديد. فالمرء يحسب انك اجتزت قارتين حتى تحضر لاصطحابي.

- كل ذلك في يوم واحد يا كاترين.

- واني اشكرك. لا تخطىء فهمي. الحقيقة اني مأخوذة بطبيعة البلاد. فحين افكر بمنزلنا الصيفي الجميل في اديلايد... والظلال الوارفة والخمائل المزهرة... تبدو لي الغرابة والحيرة في ان يكون للبلد الواحد أوجه متباينة على هذا النحو.

ان كاترين الشابة مفتونة بالقفر وقد علت وجهها النشوة والتصميم. وبدا انها مشدودة تنظر الى أسفل رغماً عنها وكأنما المشهد سحرها. وغرق في الصمت برهة يتأملها. لقد غدت ابنة بابلز الطفلة صبية حسناء. ولم يقدر في تلك اللحظة ان يدرك اذا كان سعيداً ام نادماً. انها ستسلب لبّ لايسي اذ تتميز بالبراءة والعدوانية والانفتاح الى جانب الاثارة والاغراء الملموسين. اما شعرها الغني بلوني الفضة والذهب، فرائع. واخذ يحدثها لاثارة اهتمامها قليلاً.

- بلادنا مليئة بالمفارقات يا كاترين. فهي قارة شاسعة تطوّقها الزرقة ويتوسّطها الجفاف. ولكن ذلك لا يدوم طوال الوقت لأن جمالها في السنوات المتميزة بامطار غزيرة يثير الاعجاب. وهناك معجزة الحوض الارتوازي القائم تحت الارض والذي يزداد عمقاً من نقطة الانفصال باتجاه الغرب نحو أراضي الماشية والاغنام. ويشغل

مساحة تزيد على نصف مليون ميل مربع. ولولاه ما دخلنا الغرب خصوصاً في سنوات القحط. اضيفي الى ذلك مزارع السكر وأراضي الحنطة، والكروم الكبرى في مقاطعتك في جنوبي استراليا، ومراعي الماشية والاغنام الضخمة التي أملكها في الكوينز لاند. وهناك الخضرة الاستوائية في اقصى شمال الكوينز لاند والطرف الجبلي. وتزدان فروع الانهار الراكدة بنباتات كثيفة، في حين تزدحم التماسيح الضخمة في الانهار الكبيرة والمستنقعات المكتظة بالسمك وتزحف الثعابين الكبيرة للغاية والتي تبعث الرعب في النفس حتى في وضح النهار. دعك من التمساح العجوز ذي العقد الذي اصطدت بعضه في صباي. لكنني لن اكرر هذا العمل لأني اصبحت اشد وعياً واحساساً. واؤكد لك ان هذا التمساح قبيح، لكنه فريد من نوعه. ونحتفظ في مندلاً بأحدها يبلغ طوله عشرة امتار. اصطاده والدي. واني احذرك سلفاً حتى لا تحسبيه حياً حين تشاهدينه لأن بعضهم قد ظنه كذلك. انه حقيقي الى حد انه يكاد يتحرك على الأرض في غرفة السلاح.

- انه للطف كبير منك ان تعلمني. يا له من وحش مريع!

- ليس كذلك ابداً. فانا لا ارغب في رؤية الشيب يغزو رأسك.

- ربما حدث ذلك. أحس اني أشوى الآن.

ورماها بنظرة مرحة حين رأى حمرة الخجل تعلو محياها. وطمأنها:

- سرعان ما سيتغير الجو في عالم حافل بالتناقضات الحادة. وما أسرع ما يبرد هواء الصحراء.

وفكر بتكاسل ان المكان ليس موطناً مثالياً لعرائس البحر. ولا شك ان تسمانيا تلائمها بمناخها المعتدل حيث يكثر الندى ويشبه الطقس طقس انكلترا. لماذا حضرت الى هنا؟ عندئذ اعلنت بلهجة متعالية:

- انني أنوي السفر. فهل سافرت أنت؟

- مرتين حول العالم كانت اولاهما عبر استراليا. وعندما تسافرين

يا كاترين تجدين ان لدينا اشياء كثيرة فريدة في هذه البلاد. والحقيقة انني لا أفضل زيارة اي مكان على مندلا. وحين تستقرين ستكتشفين مدى ما يملكه موقعها من جمال. وهذا كاف بحد ذاته. وقد دعا كثير من المسافرين الموسميين وسط استراليا المقفر بالتجربة التي تكسر القلب... لكونها موغلة في القدم وتحوي أقدم جزء من قشرة الارض. ولا اسميها الارض الموات لانني رأيتها تنبض بالحياة احياناً كثيرة. كما اني لم أر مشهداً يضاهي في جماله قباب الاولغا الثماني والعشرين. تأمليها بنفسك لأن ايلينور تستطيع اصطحابك إليها.

- ألن ترافقنا؟

- اني رجل كثير المشاغل يا كاترين.

- ولا تحب ان تفارق مندلا.

- هذا تصريح وليس سؤالاً. صحيح. فمندلا بلادي، وانا لا احب المدن والزحمة. ومندلا الآن في احسن احوالها منذ الفيضان الكبير. ولن ينسى أحد الفيضانات الاربع والسبعين التي غمرت مياهها الارض على مسافة الف وستمئة كيلومتر من الشمال الى العاصمة على ساحل البحر. وقد رحبت المناطق الواقعة الى الغرب بالمطر.

- يبدو ان ليس ثمة أنصاف حلول، أليس كذلك؟ فإمّا قحط وجفاف واما فيضانات وأعاصير.

- اننا أوفر حظاً في منطقة الريف حيث يتوفر لنا نظام ريّ طبيعي ضخم. وقد وفقت الى رؤيته من الجو وشاهدت مجاري المياه المتشابكة كخيوط العنكبوت. وعندما تنحسر المياه، يتسنى لك مشاهدة معجزة ارضك. ويتم التغيير، بل الانقلاب في غضون ليلة واحدة. فتكتظ ضفاف البحيرات بأسراب الطير، بينما تتفتّح الأزهار على مد النظر في السهول الجبلية وفي رمال الصحراء. واذكر اني لم أتمكن من اجتيازها على ظهر الجواد في رحلة استغرقت النهار بأكمله.

وادار رأسه الفاحم السواد ليبتسم لها، فخرست فوراً. شع

الضوء من عينيه السوداوين واشتد بياض اسنانه في سمرة وجهه. وبدا نشيطاً مليئاً بالحيوية على نحو لا يصدق وكأنه يستمد قوته من هذا الحر الذي أوهن رجليها حتى غدتا مثل موزتين ناضجتين. وعليه قررت البدء بحملة لتقوية رجليها فور هبوطهما. وبدا اصدقاء امها كسالى يفقدون كل مظاهر الحيوية امام هذا الرجل. ولم تستطع ان تحول عينيها عنه. وهنا سألها باستخفاف:

- هذه أول مرة تتأملينني فيها يا كاترين!

- كلا. ولكنك تبدو مختلفاً حين تبتسم. لذا عليك ان تكثر من الابتسام حتى يكون الانقلاب مثل الصحراء عندما يغطيها الزهر. وهل للأزهار أسماء؟

- عليك ان تسألي نل. وكل ما اذكره منها ازهار اقحوان الصحراء وشوك النار وشجرة القطن الهندي والزنبق والخبازي البرية وزهرة السلوى والزعرور والتيفاء الخضراء التي تزدهي بها السفوح. ولا انسى زهرة الكليوم التي تنبت في اقسى المناطق أي في الصخور، وتعرف بزهرة العاصفة او الريح. وبامكانك ان تفخري بالزهرة التي تحمل اسمك وتنمو في الأماكن التي ينمو فيها عشبنا الاسترالي ذو الاوراق الحادة المستنة.

عقبت ستورم بوقاحة:

- انها تشبهني.

فنظر اليها نظرة جانبية متفحصاً ملامحها مما دفعها الى السؤال:

- لا تعليق؟ ألا تعتبرني مثلها؟

- لا أرى ان عمرك كاف حتى تكوني شبيهة بها.

- ما أعظم هذا التصريح! حدثني عن مظهري.

- أما وأنك تسألين يا فتاتي المهجرة، فاعلمي انني مولع بالأولاد.

علت وجهها ألوان توحي بالغضب:

- لا أفهم تماماً معنى ما تقول.

أوضح بتهذيب:

- ابداً. والأمر الوحيد الذي لاحظته هو انك اشبه بمن اسيئت تغذيتهم. أفلم يطعموك في الدير؟

لقد انتقم. وانحنت جانباً وقد اتقدت عيناها فردّت بصوت يقلد نبرة الأم دومينيك:

- الحقيقة أننا مررنا بأيام قاسية للغاية حين كادتا الطالبات يمتن جوعاً. غير انه لم تحدث مجاعة منذ مئة سنة. والواقع انك لا تستطيع قول الشيء نفسه لو رأيت بعض طالباتنا المتقدمات سناً ورتبة. حتى الأهل لن يعرفوهن عندما يرجعن الى منازلهن. فمليسنت مثلاً زاد وزنها كثيراً ولم تعمل على التخفيف منه بل حاولت مضاعفة وجباتها وحصصها.

- لكن من الجلي انك لا تحاولين!

- كلا، حتى ولو شعرت بالجوع. فذلك أسلم. ولكن، اذا كنت تتوقع ضيفاً لا يكلفك كثيراً، فتأكد انني سأفرغ جيبك. فأنا آكل بشراهة لا اضطر لاظهارها. ارجو المعذرة.

- لن يعتذر شقيقي لأنه سيفاجأ. فمن الصعوبة ان تجدي طالبة تملك كل هذه الحماسة.

- أنتما أخوان. يا إلهي! حسبت ان واحداً يكفي.

وتأمل الوجه المذهول:

- شكراً يا كاترين. انك لا تتحدثين عن وضعنا، أليس كذلك؟ لقد اصبحت الوقاحة ميزة الشبان الناضجين. ولا شك انك ستجدين لايسي ملائماً لذوقك.

ردّت بسرعة:

- يا للأمر المريح! الحقيقة ان خبرك كاد يقتلني.

- لقد نجوت لحسن حظ لايسي والآن بامكانكما توحيد جهودكما. ولا حاجة بك لمتابعة معركتك المنفصلة. اجعلا معركتكما واحدة. على اني لا افهم، بل لا أرضى بشيء واحد هو الثورة في وجه ايلينور. فمشاعري تجاهها مخلصة وعميقة وجدية.

- فهمت قصدك يا مكميلان.

- عظيم. ان العاقل يسعى جهده حتى يفهم.

أفهمته بصدق واخلاص:

- لا انوي معارضتك في ذلك. لكنها طريقة كلامي الغريبة.

- وستغدو خطرة عليك. لا تخطئي في حساباتك.

- صبراً يا مكميلان. فانا آخر من يحاول اثارتك. يا للحماقة!

- سأمنحك العفو الآن.

- حسناً. أود ان اعرف كيف تريدني ان املأ فراغي. فجيلنا كما تعلم لا يحسن الطهي أو الخياطة.

- هذه بعض الفوائد المفسدة للتربية الحديثة الباهظة التكاليف. أما انا، فمع المرأة في المطبخ.

- سأراهن على ذلك.

حدّق في شعرها المتألق وقد برزت على وجهه تعابير الفضول:

- الواقع اننا نأكل جيداً لأننا محظوظون بمدبّرة منزل ماهرة وبعدد كافٍ من المساعدين.

- زنجية؟

تلفظت بالكلمة قبل ان تضبط لسانها السريع الحاد. واختفى المرح من عينيه. فراودها الخوف برهة. ولو لم تعتذر بسرعة، لقذف بها من النافذة.

- ارجو المعذرة.

- آمل ذلك. لا تبدي اعتراضات سامية على أمر لا تعرفين عنه الشيء الكثير.

قالت مبرّرة نفسها على غير عادتها:

- لكننا نناقش مسألة اللون في الصف.

- لا تحاولي التعبير عن آرائك هذه هنا.

وفهمت فعلاً معنى سخريته وقسوة لهجته:

- سأسعى جهدي للحفاظ على صمتي.

- أمر ليس يسيراً. ولا أريد اقفال فمك يا كاترين الشابة. وربما من العبث القول انني أهتم بموظفي، ولا أود ان تدلي بآرائك هذه بينهم.

- ارجو ان تخبرني اذا كان أحد سينضم الي.

- عندما أفكر بالأمر، أقول، كلا خصوصاً في مندلا.

- يا لحظي التعس! اني مدينة لك باعتذار، وارجو ان تسامحني يا مكميلان اذا كنت قد اسأت اليكَ. فلست أطمع أن أخسر عطفك بهذه السرعة.

نظر اليها برقة:

- حسناً يا كاترين. لكن اعتذاراً بسيطاً لن يجديك نفعاً. وثمة أمر آخر. نادني كوين عندما تستطيعين.

هزت رأسها بعنف:

- كلا. فليس من عادتي ان اتملّق احداً. لكنك توحي لي بأنك أشد آل مكميلان جدارة بالاحترام.

اذا كانت قد توقعت اغضابه، فانها اخفقت اذ ضحك ضحكة جذابة فيما ارتاحت عضلات فمه:

- حسناً. مكميلان. انها صفقة. من المؤسف ان تكوني ذكية. فالفتيات اللامعات يسببن مشاكل دائماً.

- أرى ان علي أن اضحك واقهقه اكثر فاكثر.

- من الشائع عن الطالبات انهن يكثرن من الضحك. على اني لم اسمعك تضحكين حتى الآن يا صغيرتي.

وامتقع وجهها المذهب وكأنه وجّه اليها ضربة أجابت بحدّة ملحوظة:

- أقلعت عن القهقهة والضحك منذ عطلة الفصح الماضية.

نظر امامه وسأل بصوت لا تبدو فيه نبرة الاهتمام:

- وماذا حدث في الفصح؟

- ذهبت الى منزل أمي.

- وكانت الزيارة منفرة الى هذا الحد؟

فسألت بصوت متقطع تغلب عليه نبرة الصراخ:

- ماذا تقصد؟

- اني أتأمل وجهك يا كاترين. انه جميل ويترك انطباعاً حسناً في النفس.

صاحت وقد أحست بالكراهية:

- يبدو ان أحداً لا يفهمني.

كاد يقهقه، لكنه امتنع، وقال:

- هيا، اخبريني يا كاترين، ولا تتصنّعي الغضب. فأنا لست واحدة من صديقاتك.

- أجل. انني اعلم ذلك.

ولامست عيناه رأسها المنخفض:

- حسناً... لقد كنت تخبرينني عن والدتك.

أوضحت بصوت مخنوق:

- لست أقصد والدتي بالضبط، بل اصدقاءها. انها ستتزوج. هل تعلم ذلك؟

- أجل.

- ولست مدعوّة الى العرس.

فسألها بتروٍّ:

- هل ترغبين في الذهاب؟

- كلا.

- اذن؟

أجابت على سؤاله، وقد التمع محياها بجاذبية لا تقاوم:

- هل ترغب ان تحضر عرس أمك؟

أجابها وهو يوبّخها قليلاً:

- فلنواجه الواقع يا كاترين، ونعترف بان هذا ليس شائعاً. والى ذلك، فوالدتي توفيت عندما كنت في الثانية عشرة من عمري.

قالت ببطء:

- اعذرني!

- لا تنظري الي وكأنك تقولين ان وجود أمي مبعث سعادة. لقد وقف والدي وخالتي ايلينور بجانبي، فجعلا الأمر يسيراً وسهل التحمّل.

- كان حظك أسعد من حظي. لكني اريد العودة الى قصتي الأساسية... يا لها من حادثة مجنونة... مجنونة جداً.

- لا تغالي في التصوير والعاطفة. اخبريني، هيّا.

ركزت عليه عينيها الجذابتين وقالت:

- تفحصني عن كثب. هل يمكنك ان تدّعي بأني طالبة؟

أجاب وهو يضحك ضحكة دافئة ترتعش لها النفس:

- آه. بكل تأكيد.

- اعتبر قولك مهيناً بعض الشيء. لكنك لن تؤذيني. ولن اسمح لك بايذائي. وفي أي حال، لن تتعرّف علي حين أبدل ملابسي.

ردّ ولمعان عينيه المركزتين عليها يزداد:

- ارجو ان تفعلي ذلك. وكم اتمنى ان تبقي محجوبة بزيّك الرسمي.

- وأن تتصوّر اني أتوق لمعانقتك... لا بأس عليك. قلت ان أحد أصدقاء والدتي... هذا «الحكيم» المخيف... وقع في حبي.

تعمّد القاء نظرة جانبية عليها مردّداً:

- وقع في حبك؟ هل تخيّلت، أم انك قلت، انه وقع في حبك؟

كررت قولها وقد احمرت خجلاً:

- وقع في حبي. يا إلهي! هل يصعب عليك تصديق الأمر الى هذا الحد؟

- طبعاً. فانا نفسي لن اقع في حبك ما دمت أقف على قدمين ثابتتين على الأرض. ولعلك تطلبين مني الكثير حين تتوقعين ان أفهم كل ذلك. كم كان عمر ذاك «الحكيم»؟

- أكبر منك بكثير. فانه عمل مساعداً لقائد سرب طائرات، أو شيئاً من ذلك، في الحرب التي وقعت قبل ولادتي.

وحوّل رأسه الى الوراء ليركز عينيه السوداوين البراقتين عليها:

- عليه اللعنة، ما أوقحه! أظنه عسكرياً مجرباً وبارعاً.

- كل أصدقاء والدتي كذلك. لقد كانت العملية أشبه بدخول حقل من الرمال المتحركة حيث تودي بك خطوة واحدة خاطئة. واسوأ ما في الأمر انه وجدني مغرية ومثيرة.

- هذا «الحكيم»؟

- اجل. وقد بقينا ذات مرة داخل المنزل الصيفي الريفي.

- لا بد انها كانت تجربة ممتعة.

- كلا. لم تكن ممتعة ابداً.

- انك تقولين ذلك بشيء من الفرح. آمل ان يكون قد سارع أحدهم لانقاذك؟

- لقد خلصت نفسي بنفسي. وهذا كل ما كان بامكاني فعله.

- توقعت ان تفعلي ذلك منذ البداية. على انه من الخير ان نعمل على ابقائك مدة أطول في مندلا حتى ولو كنت تعلّمت اشياء مفيدة في ديرك.

وأعلنت ستورم على نحو مفاجيء:

- الجميع من حكماء وموسيقيين وتقنيّين حقراء سواسية بالنسبة لي.

ثم رفعت اصبعها أمام وجهها على شكل خيمة تدلّى شعرها فوقها. وطرأت لمكميلان فكرة ساخرة. ستوقف مويا فيتسجرالد الجميع في صف انتظار طويل يوم القيامة. وزادت الصورة وضوحاً في ذهنه بالرغم من كل السلوى التي وفرتها له الفتاة. وسألها بشيء من العبوس:

- وماذا فعل «حكيمنا» أيضاً؟

كان جائزاً ان توشّي القصة ببعض الخيال. لكنها لم تفعل، بل

اظهرت صدقاً وصراحة غريبين.

- أصيب بضعف شديد حتى كاد ألا يتحرك او يفعل شيئاً في اليوم التالي.

- هل كان ضحية قوّتك المستمدة من الأم دومينيك؟

صاحت غاضبة:

- لست أدري لماذا تهزأ بي. لقد قذفته باناء نحاسي زرعت فيه نبتة خضراء.

علّق باقتضاب وجدية:

- كان يُحتمل ان تقتليه يا كاترين.

فأبعدت رأسها بسرعة متظاهرة بعدم الاكتراث:

- صحيح. لكنه لم يكن رجلاً طيباً. وفي اي حال، اشعر انك يجب ان تقف بجانبي يا مكميلان.

- انا أخيراً! ولكن عليك ان تتذكري أمراً واحداً. سنبدأ باداء اللعبة في مندلا.

قالت بحدّة:

- وأنا مستعدة. تأكد انني سانفّذ دوري بحرفيته.

تنهد وضحك دليلاً على عدم اقتناعه. فتأملت يديها:

- اذن، سوف أجرّب.

- هذا اقصى ما يمكن ان نطمح اليه. لا تحاولي ان ترتفعي فوق مستواك.

- صحيح! فلا حاجة للعيش بآمال كبيرة. وهذا أمر يخيفني.

وأجبرتها السخرية والدهشة البادية في محيّاه على الاستطراد:

- انها الحقيقة. لأنني لا أكذب. قد يكون تعذيب الراهبات متعة، أما انت فأمر مختلف.

- هذا أفضل! لقد رأيت ان الأم دومينيك سرّت لتخلّصها منك.

- لكنها كانت تحبّني.

نطقت ستورم بهذه الكلمات وكان من الضروري ان تثبت ان ثمة

من يحبها لا لتقنع نفسها فحسب، بل هذا الرجل أيضاً، مكميلان. وبرق بياض أسنانه:

- اني احبك يا كاترين. وسنحبك جميعاً. أنت كئيبة وريفيّة بعض الشيء. لذلك تخلّي فترة عن مظاهر تمردك، ونفّذي ما أقوله لك بينما تقيمين في مندلا. فأنت لست في اديلايد كما سبق وقلت. لا تتجولي بمفردك وتصوّري ان بامكانك القيام باكتشافات جغرافية. فلا بد من رفيق لك خارج محيط دائرة مركزها المنزل يبلغ طوله ثلاثة آلاف او خمسة آلاف متر. ويحتمل أن يرافقك احدهم ضمن هذه الدائرة. فالبلاد الواسعة حافلة بالمخاطر التي لم يضطر معظم الناس لمجابهتها. فاذا وقع لك حادث، أو تسببت بوقوع حادث، تخلقين وضعاً خطراً في عز الصيف حين تبلغ الحرارة أقصى درجاتها. وما من مكان يضاهي الصحراء جمالاً وقسوة. فمن الجائز ان يجفّ المرء ويهلك في غضون ثمان واربعين ساعة. وهناك اشياء كثيرة تتمنين مشاهدتها. لكن، لا تحاولي التجول بمفردك في الصحراء وبصحبة آلة التصوير. فقد تسعين وراء سراب. السراب قد يصوّر لك مناظر فتانة. ولعلك تقسمين انك رأيت رياض زهور وبركة ماء حيث لا يوجد شيء ما عدا نهر الرمال الحارة الممتد ألفاً وستمئة كيلومتراً. لديّ اقتراح. لا تذهبي حين أُظهر عدم اقتناع بالرحلة.

وغابت الابتسامة الوقحة التي افتر عنها ثغرها امام نظرته القاسية المتفحصة. يا لجلده الملوّح المصقول. انه أمير على احدى المقاطعات المنعزلة في استراليا. ونظراته الحادة المتعالية ليست سوى لعبة يتقنها وقد يقهرها بها يوماً. سألته وقد خفضت عينيها لتتبين المدى الذي يسمح لها ان تتجول فيه:

- اظنك أحد المراجع الرئيسية في ما يتعلق بمنطقة سمسون، أليس كذلك؟ ومن الأفضل ان تحدثني عنها.

- أحسب انك ربما كنت... مجنونة يا كاترين؟

وكست وجهها حمرة حادة:

- لست كذلك. لكنني طائشة للغاية. والحقيقة انني قرأت الكثير عن منطقة سمسون.

فسألها بجفاف:

- وماذا قرأت؟

- انها مخيفة، تمتنع حتى على الجمال. اذ تشغل مساحة تسعين ألف كيلومتراً مربعاً حيث تنتصب التلال الرملية المتوازية كالجدران. ويخاف سكان البلاد الأصليون من المكان خوفاً عظيماً. فالعشب الخاص بهذه البلاد يختلف عنه في اي مكان آخر بما في ذلك العشب الاسترالي النامي في تلال رملية اخرى. وهي تعتبر فرناً في النهار وثلاجة في الليل. بامكاني ان أعيرك الكتاب اذا شئت.

- لا حاجة لذلك.

اذا كان قد انزعج منها سابقاً، فانه عاد يمازحها دون سخرية. وتساءلت عن مدى قرابة مكميلان لها. ابن عم والدتها؟ وفوجئت حين رأته واستغربت ألاّ تكون والدتها قد تعلقت به. ولا شك انها تبادلت الرسائل مع الخالة ايلينور لأن مندلا بعيدة عن العمران يصعب الوصول اليها. من المؤكد ان مكميلان لن يتعاطف مع نمط حياتها او يرضى عن اصدقائها التافهين. فحياته ذات طراز معين له معناه وغايته وبرنامجه ويشدّه الى أرضه. ولا يمكن تصور مكميلان يطارد طالبة لأن ذلك منتهى الحماقة بالنسبة اليه.

وأزاحت شعرها عن وجهها بحركة توحي بمقتها لنفسها وهي تسمح لشعرها بالانسدال على وجهها في الاوقات العادية لأنه يستترها وتستطيع ان تختفي خلفه. انه بطانية واقية. انه بطانيتها الخاصة التي تقذفها هنا وهناك. يا للغرابة. لم تكن تفكر هكذا من قبل. ولعله تأثير مكميلان. وهو الرجل الذي يكشف العيوب. غير ان اشفاقها على نفسها لم يولد فيها شعوراً بالاستياء، وانما احساساً طاغياً بالغضب والوحدة واليأس. جلست بلا حراك. وما هي الا لحظة حتى ادركت انها ستشهد معجزة... غروب الشمس في عالم من

الصمت المطبق، عالم قاحل مجدب مثل سطح القمر. وصاحت بحدّة لتخفي رغبتها الملحّة بالبكاء:

- سوف تستعرض الشمس سحرها.

أجابها برباطة جأش وكأنه قرأ افكارها بمكر:

- استرخي يا كاترين. فليس من السهل ان تخفي او تكشفي نفسك في لحظة. وعليك الا تجربي هذا معي.

فوعدته بصوت مخنوق:

- سوف أحاول. لكنك قد لا تعجب بي.

- علينا ان نرى. ويجب ان نتذكر انك لست كبيرة في السن الى حد يحول دون وضعك على ركبتي لتأديبك. ولن أصر على القول بأن ذلك لن يحدث، فأنت بدأت تفهمين معنى التمتع بالحياة وكونك امرأة. ولن يمكنني التظاهر بعدم الاهتمام لجمالك مهما حاولت. ولن يتأخر لايسي في اعلان اعجابه. لكنك ستكونين في مأمن من اي خطر تماماً كما كنت في الدير. ولا عجب ان تحبك ايلينور. فأنا واثق من ذلك. واذا أردت، حاولي اسعاد نفسك بأن تتأملي الغروب، فنحن سنعلن هدنة بيننا حتى تغيب شمس اليوم. وسنصبح فوق أراضينا بعد حوالى نصف ساعة.

تنشقت ستورم بعمق اذ تركت كلماته فيها اثراً غريباً، مهدئاً... مخدّراً... آه، لو كانت الأمور تجري على هذا المنوال!

ونظرت الى وجهه الأسمر، والى أنفه المستقيم وفمه الأنيق، هذا الرجل قادر على ايذائها. لقد ادركت ذلك فوراً. ولا يعني ذلك انها ستسلم أمرها، او تصبح عاجزة. لكنها علمت ان هناك لحظات... لحظات... واعلنت:

- اني خائفة.

لم يتمالك نفسه من الضحك:

- علمت ذلك منذ رأيتك. والحقيقة اني لا اطيق الانتظار حتى اسمع ما يثبت شكي. كان العالم يغرق مع الغروب في الالوان

القرنفلية والبرتقالية والقرمزية القانية. واحست انها تعيش في يوم بداية الخليقة قبل آلاف وآلاف الاعوام. واكتسى الافق الغربي كله والشمس التي لا تشيخ ولا تتغير بحلّة من المجد الغارب. وردّدت كاترين بصوت متقطع متهدج:

- فلتحيا الشمس! فلتحيا مندلا! فليحيا كل شيء!

وتيقنت كاترين عاشقة الطبيعة ان مكميلان ختم قولها بهدوء:

- آمين!

فارتاحت على الفور.

٤- بدأت تتكشّف لها ملامح الاشخاص الذين عرفتهم في منزل مكميلان: ايلينور التي تحظى بحصانة خاصة، ولايسي الذي عمدت الى تأديبه، وكوين الذي يتمتع بالشجاعة، ونزعة فطرية للقيادة.

- لن أتعلّم ابداً! ابداً!

هكذا فكرت ستورم وهي تسرّح شعرها بالفرشاة تسريحاً عنيفاً. فأخذ يتكهرب وقد اتقد بألوانه الفضية والذهبية كفروة هرّة غاضبة. ومن لا يرحب بالهررة؟ لقد أعادت الأم دومينيك التفكير مرتين وثلاثاً قبل ان تقبل بأن تبقى القطة العجمية ذات الصوف النفيس، زارا، في مكتبها. واقتربت ستورم من المرآة اذ أغواها بريق عينيها الذي يحاكي بريق عيني الهر، واثارت انفعالاتها الشخصية اهتمامها. فمن هي؟ فتاة سخيفة انانية تتمنى ان ينصب عليها اهتمام الجميع دائماً. وبدت كمن يعاني نوبة آلام نفسية حادة. فاتسعت حدقتا عينيها

www.elromancia.com

كثيراً. وأدركت انها لا تظهر بمظهر الطالبة أو المرأة النموذجية تماماً. فوضعت فرشاتها جانباً وقد أحست انها منبوذة حالياً، وانها بلا قيمة.

ظنت نفسها قبل ساعات امرأة كاملة. وهو وهم صوّره لها مكميلان. انها ليست صغيرة أو ساذجة حتى تخفى عليها حقيقة تأثرها بقوة شخصيته. واشعرتها هذه القوة بالأمان اذ حاكت دخولها الى دائرة سحرية كانت مغلقة في وجهها حتى ذلك الوقت. لقد حسبت نفسها بين اصدقاء. فاذا كان مكميلان قد قبل بها، لماذا لا يقبلها شقيقه؟ ولم تتمكن من التهرب من حقيقة ان لايسي مكميلان يتجنب الطالبات على حد اعترافه. كما انها لم تنتظر ان تجده مترقباً زيارتها، ولكن، ماذا توقع ان يجد فيها؟ أسيدة قصيرة بدينة تقطعت أوصالها وشدت اسنانها الى بعض بأطواق معدنية؟ فاذا كان ذلك صحيحاً، لا عجب ان يكون قد اختفى. كان الخطأ خطأها في أي حال لأنها وصلت بمظهر مضطرب اذ لم تستعمل أياً من أدوات زينتها أو تلبس احدى البدلات الفاخرة التي امطرتها بها والدتها بدل زيارتها. ولو حاولت ان تظهر بمظهر الولد المدلّل، لأمكنها ذلك. وتمنت لبرهة لو انها فعلت. ومكميلان نفسه توقع حضور شقيقه في ساعة وصولها. غير ان لايسي لم يتكرم بالظهور. ولا زالت الكلمات القليلة التي استرقت السمع إليها من محادثته مع الخالة ايلينور ترنّ في أذنيها.

سوف يدفع الثمن! وصرّت أسنانها لتمتنع عن الصراخ. جميع العوامل تساعدها على تأديبه. انها ليست ابنة بابلز فيتسجرالد سدى أو عبثاً. ولن يقدر أي رجل ان يقذف بستورم فيتسجرالد في سلة مهملات وكأنها ليست شيئاً. لقد أفسد لايسي بمغالاته في التوبيخ كل شيء... وتعليقاته الجارحة التي تطال والدتها. والحقيقة انها لا تلام على طريقة عيش أمها. فهي لن تحاربها في نمط الحياة. لكنه لا يملك أبسط المقومات التي تسمح له بالتفكير في الأمر.

وحركت شفتيها فيما تحدّث نفسها صامتة. ثم اندفعت نحو الباب المحجوب بحاجز منخلي ينفتح على الشرفة. ولم تكد تحتمل مندلا المليئة بكل الحنين. ولكنها أحبتها. صحيح ان المنزل محاط بالبرية، لكنه يحوي كل ما يريده الانسان في الأرض. ولامس النسيم العابق بالاريج خدها ليعطرها بشذى زهور الشجر الذي يتسلق الاعمدة والدرابزين المشبك عند حافة الشرفات والمصاطب. ورفعت ستورم وجهها الى اعلى لتنظر الى القمر الشبيه ببرتقالة ذهبية ضخمة تسبح فوق الأشجار العتيقة والمثقلة بالبراعم والازهار. وخيل لها من موقعها المرتفع في المنزل ان التلال الرملية حقول تزلّج تنبسط تحت ضوء القمر.

وانتابتها فجأة سعادة منعشة ومؤلمة لم تعرفها من قبل وذلك للأهمية التي علقت عليها في هذا المكان، في مندلا. وجعلتها نظرتها الاولى تفهم كل شيء... فتنة الأرض وجاذبيتها، وافتخار المرء بتراثه. ومكميلان فريد من نوعه يختلف كل الاختلاف عن سائر العشاق والاصدقاء الذين اجتمعوا حول والدتها. ومن الجلي ان ميراث مكميلان يتمركز حول رمز يفخر به الانسان هو منزله. وليس الأمر سهلاً. فاقامة وصيانة الممتلكات في هذه القفار الشاسعة الموحشة عمل يتطلب تصميماً ورؤيا نادرين فضلاً عن الشجاعة.

أما الآن، فيعيش افراد اسرة مكميلان في حرية ونعيم عظيمين اعتبرتهما ستورم حقاً مكتسباً او مكافأة على جهادهم. فالرواد يولدون ولا ينشأون. ولا يعقل ان يتصور انسان عادي يهتم بسلامته الفردية ورخائه المباشر ان تصبح الأمور على هذه الحال في المستقبل.

وتوصلت الى اكتشاف مبهج هو افتخار مندلا بشبحها. ولم تعلم الاّ فيما بعد انه شبح مأساوي لعروس مندلا الأولى، ايمه مكميلان التي اغرقت نفسها في البحيرة التي تبعد اربعمئة متر عن المنزل وذلك

لحزنها الشديد على فقدها مولودها البكر. وادركت ان مكميلان نفسه مطلع على قصة ايمه. ولطالما روّعت المستنقعات والبحيرات أعند الرجال وأصلبهم عوداً. غير انها لم تفهم مظهر الشبح هذا.

ورجعت الى الغرفة وهي مأخوذة بافكارها بينما تفحّصت سقف الحجرة المرتفع والاشكال التي تزينها. لقد سمحت لها الخالة ايلينور باختيار غرفتها الخاصة. فانتقت هذه الحجرة لوجود سرير واسع فيها ولكون اثاثها قد صنع من خشب الورد. اما السجادة، فجديدة ذات لون ذهبي باهت. كانت غرفة جميلة فيها موقد منحوت ولها طابع يوحي بالقدم سيما في خزانة العرس الواقفة عند طرف السرير. اما الرسوم فتجريدية، الأمر الذي يثير الاستغراب. وهي من بقايا مجموعة الخالة ايلينور. على ان ستورم لم تشمئز منها حتى ولو لم تعن الشيء الكثير بالنسبة اليها.

كل هذا هدّأ من روعها لأنها متقلبة في ميولها ومزاجها. والى ذلك، فان عمرها يسمح لها بالتزام الحذر في قبول وتحمل السلوك الانساني في دوافعه ونتائجه. ولن تسمح لأحد بقهرها ساعة وصولها رغم انها لم تتوقع اعتراضات كثيرة قد تنمّ عن شيء من الحقد. كما ان الرجال ليسوا متعاطفين في العادة. لكن قلب مكميلان كان عامراً بالحب والحنان، ويا للغرابة. غير ان ستورم لم تعرف كيف توصلت الى استنتاجها هذا. والمؤكد انه يتمتع بنفسية الارستقراطي الطبيعي المتسمة بطابع الابتعاد والترفع عن الناس، وهذا ما حيّرها. وانها لمضيعة للوقت ان تقارن بين الشقيقين. ومع ذلك، تنبهت الى ان بامكانها استهداف لايسي لأنه أسهل منالاً من كوين وأقل تعقيداً في شخصيته، وهو عفوي في حديثه. ولن ينعم لايسي بالسلام بعد ما قال عنها. ويكفي صوته للتعبير عن اضطرابه الشخصي وعدم ثباته في الرأي علاوة على قساوة مقصودة تجاه الآخرين. كان مكميلان يعتقد ان لايسي يستحق بعض العقاب بالرغم من ان الأخير سعى الى اثبات شخصيته تماماً مثل ستورم. فكلاهما منهمك في اعلان

هويته طيلة الوقت. وظل على ستورم ان تكتشف هذه الحقيقة. لكنها اكتفت الآن بمعرفة امر واحد. لن يكترث كوين مكميلان باسوأ ما عندها من حيل بالية، فيما سيهتم لايسي.

وتأكدت ان الخالة ايلينور امرأة تتمتع بوعي صادق، ووجه ينطق لطفاً، وصوت وابتسامة بعذوبة الحمامة. وأكد قلب ستورم وعقلها لها انها تحظى بتأييد صديق في الاسرة. وما فكرت بذلك، حتى تحمست لارتداء ملابسها والنزول لتناول العشاء. واصبح بوسعها الانشغال بفكرة اخضاع لايسي مكميلان وتأديبه. واطمأن قلبها الى نتائج عملها في الزينة والملبس مدة ساعة، فاستعادت مرحها. اكتسبت مظهراً يوحي بالمغامرة بعد ان أسدلت شعرها على ظهرها. ولم تخطط لذلك في الأصل. فصرفت دقائق طويلة ترتب هندامها بحيث تبدو نبيلة المظهر. فخربت زينتها، وعاودت الكرة الى ان توّجت جهدها نؤابة ذهبية من شعرها انسابت فوق وجهها وعنقها. وبرز الاختلاف في هندامها اذ بان صدغاها ووجنتاها. وتخيلت ان عنقها طويل كعنق البجعة.

وماشى ثوبها آخر التقليعات. فلامس طرفه كاحلها. وقد صنع من نسيج رقيق يعتبر بدعة في الصناعة اليدوية، وطرز بخطوط زمرد تمثل الاشجار. اما فتحته العليا، فانخفضت الى حد لم ترض عنه ستورم، التي تزينت بزهرة كاميليا اصطناعية اقتنعت بنضارتها وجمالها حتى كادت تعتبرها حقيقية. وتيقنت انها ستكون بمثابة رصاصة الرحمة التي تطلق على لايسي مكميلان. ولم تسع الى التقليل من الأثر السحري لخضرة عينيها، بل أضافت قليلاً من مستحضر تجميل أهدابها على اطرافها الخارجية الطويلة. ورسمت على وجنتيها وشفتيها خطوطاً من أحمر الشفاه تباينت بين قرنفلي حاد وذهبي عسلي. وتمّ لها الكمال في كل ملمح من ملامحها. أضحت ساحرة. كانت تنتمي الآن الى طبقة السيدات المغريات وطغى عليها فخرها وانشراحها بأنوثتها الى حد انها لم تقدر على منع نفسها، في الخيال،

من ملاقاة نهايتها ومصيرها بسبب جمالها. لقد صممت على الانتصار كما لم تصمم مرة في حياتها. وأدت دورها بمهارة عظيمة موروثة لم تخلُ من آثار أمها...

كان الرواق الطويل الممتد أمام غرفتها مرتباً ترتيباً رائعاً. اجزاء الجدران السفلى مكسوة بالواح الخشب، في حين زينت اقسامها العليا باللوحات الزيتية التي تمثل افراداً من آل مكميلان بدت الجدية والرصانة على محياهم وفي نظراتهم المنطلقة من أطر الصور المذهبة. وأقيمت قباب زجاجية في السقف المدهون بلون العاج، وقد زودت بخطوط ذهبية تزيد ضوء النهار المتسرب من اعلى اشعاعاً على حد ظن ستورم. وصفّت قرب الجدران طاولات وضعت عليها أواني الزهور وخزانات الكتب علاوة على بعض التماثيل المصنوعة من البرونز. لكنها لن تتأخر قدر ما تتمنى لأن دقات الجرس الخفيفة التي سمعتها قبل دقائق أعلنت موعد العشاء.

وفيما عدت نحو السلّم راقصة دون ان يحدث حذاء السهرة الذي انتعلته أي صوت على الممسحة المصبوغة بلوني الذهب والياقوت، فكرت بأهمية السلم ويكونه وسيلة لا تضاهى في تشييد مداخل المباني. وتمكنت من سماع الهمسات وقرقعة الاحذية على أرض المدخل المفروشة بقطع الخشب. ولما بلغت أعلى السلم، اطبقت يدها على الدرابزين المصقول وألقت نظرة على القاعة في الأسفل. وجدتها تشع في وهج الثريا القديمة المصنوعة من الكرستال والذهب. وبدت تحفة في المنزل بالرغم من كل التعديلات التي اجريت على جدرانه الداخلية وأبوابه ونوافذه والحواجز التي تسترها.

وغرزت اظافرها في راحة يدها، بينما تجلت براءتها وسنّها الصغيرة بالرغم من محاولتها الجادة للظهور بمظهر البالغين. ولاحظت أن لايسي وقف يتأملها، لايسي الذي كان يختلف كلياً عن توقعاتها من حيث لون بشرته. لقد تصورته أسمر اللون مثل شقيقه له عينان سوداوان براقتان. الا ان لايسي بدا على النقيض من أخيه بشعره

الأشقر وعينيه الزرقاوين المعبّرتين. ولن يحار أحد في تحديد هوية الزعيم بينهما لأن الأخوين مكميلان يختلفان عن بعضهما كما يختلف أي أخوين آخرين. ولا يتشابهان الا في تركيب عظامهما وتكوين عضلاتهما... الأمر الذي يجعلهما جذابين كيفما نظرت اليهما. وفي حين اتسم لايسي بمظهر الصبي الطائش والشرير، كان كوين يوحي في كل كلمة يلفظها وفي كل حركة من حركاته بأنه تخطّى مرحلة اللهو منذ أمد بعيد.

وتخلى لايسي عن لهجته الوقحة. تقدّم منها وقد انعكس في عينيه شعور بالدوار. وهتف:

- أهلاً وسهلاً بك في مندلا يا ستورم الحبيبة.

ابتسمت له ابتسامة ساخرة سبقتها في نزول السلم:

- مرحباً ايها الوحش. كدت أصاب بالزكام من حرارة استقبالك البارد لي باديء الأمر.

- اني نادم أشد الندم يا عزيزتي. فكيف كان يتسنى لي ان اعرف انك تحاكين الملائكة رقّة؟

وسمعت ستورم في صوته رنّة لم تألفها من الغيرة والاحترام وغياب الحذر. ولم تكن لتعرف ان الحذر ناجم عن احترامه الفائق لشقيقه ونواياه الخاصة بها. وكل ما شاهدته هو الاعجاب المتّقد في عيني لايسي. ولم تسمع الا أصواتاً مبهمة أحدثتها الخالة ايلينور التي تقدمت الى باب المكتبة.. ولعلّها قالت: «العشاء جاهز»، او «هيا يا كاترين» أو اي شيء آخر. وتجلّى عدم اكتراث لايسي بنداء خالته فيما حاول ان يخبرها بأن ما ظنّه عقدة حياته قد انقلب راحة ونعمة. وقال حين نجح في الايحاء بمقاصده النبيلة:

- انني محظوظ للغاية.

ورددت ستورم بعذوبة:

- مساء الخير يا خالة ايلينور.

وبدت طفلة صغيرة فاتنة، لا بركاناً هائجاً كما توقعها الجميع

ان تكون.

ولما تلبست ستورم شخصية كاترين، أخذت تتصرف بلياقة كبيرة وصاحت في وجه لايسي ثانية وقد التمعت عيناها النجميتان ببريق غاضب:

- أيها الوحش.

وبدا ان اناقة كاترين البالغة وافتتان لايسي بها أنسى كوين الخارج من مكتبه كل همومه ومشاغله. كيف يمكنه ان ينسى حب لايسي للغرابة، ومظهر كاترين وعينيها الخضراوين الكبيرتين المشعتين اللتين تطابقان هواه؟ وخطر له ان يدلي بملاحظة ساخرة. لكنه تراجع عن الفكرة. فالتعاطي مع الشباب والصغار أمر معقد ودقيق مثل التعاطي مع الجياد. وهناك أمور كثيرة يجب ان تؤخذ بعين الاعتبار ويتم التحكم بها شريطة الا يزداد الضغط لأن أفضل الجياد قد يكبو اذا عولج معالجة خاطئة. اما لايسي وكاترين، فمليئان بالحيوية مما جعله يتردد قبل ان يبدي أية ملاحظة جارحة. وصوّرت له البحة في صوت كاترين انها اصيبت بالزكام. وذكّره كل هذا بجمال مويا مكميلان الاسطوري.

وابتسمت كاترين للايسي. كان كوين على دراية تامة بقدراتها وقد بدت اشبه بوردة اثقلت ببراعمها المتفتحة وانتشت بجمالها. وزادت المغالاة في ترتيب هندامها من براءتها الغريبة. كانت السعادة البادية في وجهها تجعلها تبدو مثل فتاة صغيرة.

وقررت ايلينور المحللة البارعة للشخصيات ان لكاترين شبهاً كبيراً بأمها. الا انها تتمتع بقدرة على ضبط النفس، ودراية حادة لحاجات الآخرين. فلقد عاشت الفتاة طفولة مخيفة ومعذبة بين اناس لم تشعر بالانتماء اليهم. وأجفلها صوت كوين اذ تقدم ليدخل دائرة الضوء. وتميز صوته بحدة ظاهرة وهو يقول:

- مساء الخير يا كاترين. أرى انك التقيت بلايسي وتبادلتما التقدير والاعجاب.

واذا كان صوته قد اجفل ايلينور، فانه وضع ستورم في حالة من الاضطراب. فتأملت عيناها الناطقتان بتعبير حزين غامض قامته المديدة. ولم تتأخر عن تقديم محاسن كوين مكميلان مع العلم بانها وثقت من جذبها للايسي. ولم تنقشع عيناه السوداوان وقامته السمراء عن اي سر، بينما تضاربت سمرة بشرته مع شحوب قميصه وانوار الليل. ولم ينجل الاعجاب في عينيه اللتين خلتا من التعابير الراقصة التي تماوجت في عيني لايسي. الا ان مندلا وكل شيء آخر بدا وكأنه يسبح في سعي غامض. هل يمكن ان يكون أحد المنومين المغناطيسيين؟ اذا كان كذلك، فانها اكتشفت تأثرها الشديد به. تأثرها الذي يزعج راحتها ويقلقها.

وعضت شفتها السفلى لتوقف نفسها عن التراجع الى موقع استراتيجي خلف الخالة ايلينور على سبيل المثال، التي تمتعت بحصانة في المنزل في حين لم تتمتع هي بمثلها. وأجابته بانفعال:

- مساء الخير يا مكميلان.

فابتسم ابتسامة لم تفهمها. وكانت الخالة ايلينور وحدها قادرة ان توضح لها ان الدعابة تدخل في كلّ اعمال كوين. ورمقته بنظرة امتزج فيها الاحترام بالاستفزاز بحيث لم تفهمها هي نفسها. اما لايسي، فلم يرق له الوضع، وتحركت غريزته. فاستدار بحركة ماكرة ليقبض على ذراع ستورم قائلا:

- هيا بنا ندخل. فان من التعاسة ان ينضم الينا شقيقي كوين.

وحركت ايلينور التي وقفت تراقبه يديها في اشارة مضحكة. لقد استرجع لايسي شخصيته، الامر الذي سبب لها بعض الكآبة مع انها تعلم ان كل هذه المحاولات للتجريح بشقيقه وبهالة الاحترام والنجاح المحيطة به ليست سوى وسائل لتبرير الذات والدفاع عنها. ولم يكن لايسي ليجادل في ان نزعة القيادة عند اخيه فطرية. لكنه

احب مقارعته. وتنبهت الى بريق الحيرة ثم الوعي في عيني كاترين. فعدوانية وعداء لايسي الشاب لاخيه بارزة بحيث لا يخطىء احد في تحديدها خصوصاً اذا شعر بأنه مهدد. ولا بد ان تتضاعف حساسيته بينما تصدر المسرح مع كاترين. وربما ادى ذلك الى نشوء مشكلة. لقد ولد ثانياً، وتصور لايسي بالتالي انه جاهد اكثر من معظم اترابه اذ لم يقبل واقعه. لا لانه قادر على تحمل كل المسؤوليات التي تحملها كوين... فهذا ليس من طبيعته. وقد استنتجت ايلينور نفسها، وهي التي تحبه، انه تأخر كثيراً في نضوجه وتخطي مرحلة الصبي الذي يدعي انه يضاهي شقيقه مهارة وقدرة.

وتنبهت كل حواس ستورم بينما تطلعت حولها اذ رغبت ان تسجل كل ما يحيط بها من انطباعات الاشخاص المختلفة وامزجتهم المتصارعة. وهدوء الخالة ايلينور وتحركها البطيء دليل على رباطة الجاش. وادركت ستورم غضبها وسببه.

فذات لايسي الغاضبة واصابعه المغروزة في ذراع كاترين كشفت السبب. وبالرغم من حبه واحترامه الشديدين لاخيه، فقد حسده وغار منه. ولم تحمله اللوم وحده لأنها لم تقدر الا ان تساعد مكميلان على تسليط الاضواء على نفسه. ولم تشعر، وقد راودتها هذه الافكار، بالذنب اذ ابتسمت أمام عيني لايسي الملتمعتين حقداً. وبادلها النظرات بعينين تقدحان شرراً دون ان يدرك مكر النساء ودهاءهن.

- اني اؤمن بالقسمة، فهل تشاركيني ايماني؟

- هل تفعل؟ اني اشاطرك القناعة.

- لا احسبكما قادرين على معالجة الموضوع.

هكذا تكلم مكميلان بحدة غير مألوفة مما اقنع ايلينور بان لايسي يشد فجأة. ربما ساهموا جميعاً، وبمن فيهم كوين نفسه، في افساد لايسي اذ تنحوا وفرضوا عليه مقاييس للسماء وحدها ان تعرف صحتها. ولم ينقذ عامل واحد في المزرعة أمراً من أوامر لايسي الا اذا تأكد بطرق ملتوية ان الأمر صادر أساساً عن المدير العام. انها مؤامرة

لحفظ ماء الوجه بالنسبة الى لايسي، لكنها استمرت طويلاً. واتضح من التصميم البارز على محيا كوين انه توصل الى الاستنتاج ذاته. ولعل كاترين الشابة الحسناء وفرت الذريعة، او لعلها كانت آلة لتنفيذ اغراض الآخرين؟ وكل ما عرفته ايلينور يقيناً هو ان كل من يحاول ان يعبث بكوين، فانه لا يأمل بالنجاح. واقنعتها نظرة أخرى ألقتها على وجه كاترين المحمر خجلا وبشرتها النضرة الخالية من العيوب ان الفتاة ما هي سوى الشريط الذي يصل بين دائرتي الكهرباء. ولم تتعود ايلينور منذ طفولتها تجاهل الرموز والمضامين في أي أمر. لذلك اطمأنت اذ لاحظت صفاء مثيراً وحساسية حادّة يوحيان برغبتها الا تؤذي احداً واستعدادها للاعتذار عن خطئها. وهل ادركت، الفتاة، ام لم تدرك، الآثار المدمرة التي تركتها ابتساماتها الفاترة على لايسي؟

وراقب كوين الوضع بشيء من المرح داخل حجرة الطعام المفروشة باثاث فاخر يعود الى أيام الملك جورج بتصميمه والمزدانة بالواح الخشب التي تغطي الاجزاء السفلى من جدرانها واللوحات الزيتية المعلقة في اعلاها وخزانة الاطباق والفضيات المنخفضة. والأمر الذي اهملته كاترين هو اعمالها للخيال وهي الفريدة في شخصيتها، والمتناهية الأنوثة المتفاعلة مع اعجاب لايسي المعلن بها. انها زهرة الريح المتميزة بلمعان الذهب في شعرها وعلى بشرتها. وانه لمن المعجزة الا تسبّب له ازعاجاً. لقد فكر بشخص آخر بل بفتاة أخرى تناسب لايسي. ولا يمكن لأي عاقل ان يجمع هذين المتمردين. لكنه ادرك انهما سيتحدان في لقاءات الأسابيع القادمة ليحرجاه.

ورمته كاترين في المقابل بنظرة متحرّرة من عينيها الخضراوين الواسعتين وكأنها حورية صغيرة متمردة وفيها انحناءة ملحوظة (اني هنا بجانب لايسي) هذا ما توقعه بالضبط. فابتسم لها متسامحاً، بينما سدّد اليها نظرة تنمّ عن القوة المتربعة فوق رأسه وعينيه. وتمايلت

نظرته القاتمة فوق قدرتها الضعيفة. وما هي الاّ لحظة حتى خفضت كاترين عينيها لأنه قد يمضي الف عام قبل ان تواجه نظرة كوين مكميلان بمثلها.

٥ـ خطف الحجر من يدها بينما كانت تحاول ان ترمي به ثوراً هائجاً. صفعها وحذّرها انه لن يتسامح معها اذا خرجت بمفردها ثانية. تملكها شعور غامض نحو كوين... أحسّت بتبدل شخصيتها، وبدا واضحاً انها باتت تعتبر مندلا مملكتها.

حلّقت الطيور فوق رأس ستورم، آلاف الطيور الصغيرة الزاهية الالوان كأنها في هجوم. حجبت عينيها بيديها ورفعت بصرها لترى مشهداً مفرحاً، تراقصت فيه أطياف السراب الخادعة. سحرتها مندلا باتساع رقعتها، والجاذبية الكامنة في هذه المنطقة النائية. لم تألف بعد شهر من اقامتها هنا حياة الطيور باسرابها الكبيرة المقيمة التي تظهر كل يوم، وفي كل الفصول. هناك أسراب ضخمة من عصفور «ابي بليق» ذي الريش القرمزي والبرتقالي والحلق الأسود والظهر الأصفر، وعشرات الألوف من البغاءات الاسترالية الشديدة الخضرة، وعصافير الدوري، وهي هدف رئيسي للطيور الجارحة،

www.elromancia.com

والنمانم المتناهية في الصغر والمزهوة بريشها الملون بألوان الجواهر ورؤوسها الفيروزية، والخطاف الصغير الشرس الذي يجرؤ على تحدي النسر بجناحيه اللذين يزيد طولهما على المترين، وبمخالبه الفتاكة يقتل واحداً من قردة الكنغورو. وهذه حقيقة رأتها ستورم تحدث... ودفعت ثمن مشاهدتها كابوساً مزعجاً!

ومع فيضان البحيرات والمستنقعات وفروع الانهار الراكدة، اضحت مندلا أرضاً خصبة للطيور المائية المهاجرة. وامتلأ الجوّ بكل طيور الخليقة، فاستوطنت مجموعات كبيرة من طائر ابي منجل الطويل المنقار والقائمتين في المستنقعات بينما اقامت اسراب المالك الحزين والبلمون الأبيض أو ابن الماء وابي ملعقة (وله منقار يشبه الملعقة) في البرك القليلة العمق حيث نمت النباتات المائية. واحتشدت عند ضفاف المجمعات المائية الآلاف من بط خشب المغردة ذات الرؤوس النحاسية اللون، ودجاج الماء الصغير القد والنشيط، والاوز الأسود والأبيض. ولم يسمح مكميلان لستورم، بالرغم من شغفها الكبير وآلة تصويرها الجاهزة دوماً، ان تتقدم بعيداً بين المستنقعات حيث تنمو نباتات عالية تكشف اعشاش البجع. واضطرت ستورم ان تنتظر حتى يتفرغ مكميلان بعض الوقت لأن البحث عن اعشاش الطيور لم يرق بكل تأكيد للايسي الذي لم يعجب مثلها بهذه الارض الشاسعة مع انه عرفها منذ ولادته.

ستنفجر مندلا في وجهها انفجار النيزك. لكنها لا ترغب بمغادرتها ابداً بل نعمت فيها بالسكينة وشعرت انها ولدت من جديد. ولم تتأكد من حقيقة مشاعرها في تلك الأيام التي شاركت فيها لايسي مؤامراته على كوين. وتزايدت قناعتها بأنها تصرفت حينذاك بطيش وحقد ـ علماً بأنها لم تعرف الحقد ـ وبأنها هدرت قوتها ومواهبها، وهي التي تمنت كثيراً ان تشعر بانتمائها الى المكان. لقد ادركت طبعاً ان تلك الفترة لم تكن لتدوم، لكن احداً لم يقدر ان يشعرها بأنها شخص مرغوب فيه، وبان استضافتها متعة تفوق استضافة الخالة ايلينور.

وعندما علمت انها ولايسي ينغصان عيش الخالة ايلينور، انحطت معنوياتها بشكل حاد، وانزعجت كثيراً. ونفد صبر مكميلان نفسه تجاهها دون سابق انذار. فكان لذلك اثر الزلزال في نفسها!

لقد تحتم عليها ان تعتذر عما بدر عنها من تصرّفات طائشة لكنها لم تته في نهار الأمس، بل استراحت بعدما تعرّضت لحرّ الشمس. غير ان احداً لم يصدقها حتى لايسي، وكذلك مكميلان الذي تأملها بعبوس ورفض تناول عشائه. لقد ناهزت كاترين التاسعة عشرة من عمرها، ولا بد ان تكون على دراية بما تفعل، لكن الحقيقة التي نفتها عينا مكميلان السوداوان المتقدتان شرراً حزت في قلبها كثيراً.

وفي أيّ حال، فان لايسي هو الذي تولى اطلاعها على قسم كبير من الممتلكات بطريقة او باخرى. واذا لم تكن طريقته صحيحة، فان كاترين ادركت ذلك، وسمحت لها أن تكبت معرفتها. ولم يكن بامكانها الاستمرار في تبرير نفسها بالقول ان لايسي يلحّ عليها ويحرجها لان صده لم يتطلب جهداً كبيراً منها حتى ولو انه لم يقبل الواقع طالما التمعت عيناه الزرقاوان بالحقد والخبث. ولايسي يتجرأ دائماً على بعض من حوله.

ومن دواعي سرورها ان تعترف بينها وبين نفسها بحقيقة كوين مكميلان الذي يجدها جذابة احياناً. فقد تمكنت من اضحاكه حين عجز الجميع. واكدت الخالة ايلينور نفسها هذه الحقيقة فيما احتفظت ستورم بالسر لنفسها اياماً وانتعشت اذ بدا ان مكميلان لا يملك متسعاً من الوقت للاسترخاء في حين لا ينبغي لأي رجل ان يعمل بهذه القسوة طوال ذلك الوقت. واذا لم يفطن لايسي لأي تقدم، فالخطأ ليس منها على حد ما اوحى به مكميلان ليلة البارحة. وازعجها ان يتجاهلها كوين فترة من الزمن، ثم يبتسم لها حين يكون ذلك ملائماً له. كم احبت خلال هذا الوقت تلك الفترات الا انها كانت نادرة. ولا عجب ان تمازح لايسي لانها الطريقة الوحيدة التي تكسب بها عطف الأخرين وتجذب اهتمامهم. ولا شك ان لايسي

مصيب في تصرفه. ومن ناحية اخرى، هل يجوز لشخص بالغ عاقل ان يسعى لصبّ اهتمام الآخرين عليه؟ وتنبهت الى امر واحد هو انه اذا اراد لايسي متابعة مشاجراته المتواصلة مع شقيقه فانها لن تشاركه. ولم تعلم ان جمال مندلا الغريب والوحدة التي عاشتها واتصالها الحميم بالطبيعة ساعدت على اسراع نضوجها اذ توجب عليها اعمال عقلها في حلّ مشاكلها وصراعاتها وكذلك مشاكل العالم من حولها. وتسرّب دفء الشمس اليها وجمال الطبيعة العارم الى اعماقها فخفّ اضطرابها وازدادت تألقاً.

صعب عليها التفكير باثارة عصيان جديد وهي تمشي على بساط من الازهار البرية الرائعة التي تخطف الابصار في ضوء الشمس حين تمتدّ اميالا في باقات من زهر الاقحوان الصحراوي الابيض والاصفر والبراكيليا القرنفلية وزهور الخشخاش المزهوة بلون الليمون الحامض الشاحب وشوك النار الناري اللون والخبازي البرية اضافة الى انواع كثيرة من الازهار السنوية المنتشرة في الحديقة الصحراوية اللامتناهية. لكنها لم تعثر ابداً على زهرة الكليوم، زهرة العاصفة والريح. فهي تنبت وتتفتح في جبال الصخور السوداء حيث حظر عليها الذهاب. ولشد ما طمحت الى زيارتها. لكنها في اي حال خافت الافاعي كثيراً.

واشتدت قوة الشمس. حان موعد رجوع ستورم الى البيت، فقد اصرّت الخالة ايلينور على مشاركتها فنجان الشاي الصباحي لتتاح لهما فرصة مناقشة مختلف المواضيع. والخالة ايلينور رقيقة الطبع حادة الذكاء واسعة الاضطلاع، تعرف كل ما يتعلق بالآثار. عيبها الوحيد يكمن في تغاضيها عن الاخفاق في انفاق «اموال مكميلان». وسواء كان ذلك عيباً ام لا، فان الجميع شاركوها فيه حتى ان مكميلان اعجب باكتشافاتها واجرى بالتالي كل التعديلات والتحسينات الجميلة على المنزل حتى ظهر التباين بينهما في نمط العيش. فشابه المنزل بتصميمه الداخلي مساكن اليلايد الفخمة، بينما ترددت في

الليل عبر التلال من حوله أصوات قطعان كلاب الدينغو ورأت ستورم قساوة فاتنة قهرتها، وسرّها الاستسلام لسحرها.

وتناثرت ازاهير البوهينيا الحمراء على رأسها. فخرجت من دائرة الظل التي رسمتها الاشجار القائمة على ضفة الجدول. عندئذ علت وجهها مسحة خوف مضحك، اذ توسّط هذا المشهد الطبيعي الوادع خطر جسيم داهم. ولم يخل الوضع من المرح. لكنها لم تدرك عنصر الفكاهة اذ ادهشها ان ترى ثوراً مكتمل النضوج ضخماً مرعباً وقد افلت من زريبته، وخفض رأسه واغمض عينيه نصف اغماضة، بينما التمع قرناه الحادان في وهج الشمس.

لن يهاجمها طبعاً. فهو لا يحدث صوتاً، حتى انه لا يتنفس. وكذلك هي. لكنّ ركبتيها اصطكتا خوفاً. وتفحصّا بعضهما بهدوء. ومن حسن حظها انها لم ترتد ثياباً حمراء. ولكن، كيف تعبر الغدير؟ صحيح ان مجراه ليس واسعاً، الا ان ضفتيه مليئتين بالحجار والحصى. وسيثير عدوها الثور لا محالة. وما أفظع ان يثار هذا الحيوان الضخم! تسارع خفقان قلبها حتى عجزت عن بلع ريقها. وخطت خطوة صغيرة، فيما ضرب الثور الأرض بحوافره.

وكادت ستورم ان تجهش بالبكاء بصوت عال اذ هالها تهديده بأن ينطحها. ولم تفكر بخطر الموت ولا باحتمال عودة والدتها من شهر العسل بسرعة. لقد انقلبت سكينتها المطمئنة وحدة مرعبة. وانحنت على عجل لتلتقط حجراً كبيراً تقذف به الثور لتكون المبادرة الى الهجوم في حال تعرضها للخطر. رفعت الحجر بعزم امرأة خائفة.

ولم تقو على الانتظار والخوف في ايّ حال. وتضاعف رعبها عندما خُطف من يدها بسرعة مذهلة.

- قولي بحق السماء ماذا تفعلين؟

سمّرها الصوت في مكانها لبرودته وحدته المخنوقة. انه مكميلان وقد اتقد غضباً. والغريب انها لم تعرف حتى الآن انها خشيته. فاجابته متلعثمة:

- الث.. ثور.. وكأنك بحاجة لتفسير!

لكنه استفسر بحنق:

- ماذا كنت تنوين؟ قذفه بالحجر؟ يا لك من حمقاء صغيرة!

ورمى الحجر في الجدول. فكان كافياً لاخافة الثور، الذي ولى الادبار مبتعداً عن ضفة الجدول كأي حيوان يجفله صوت غريب في الغابة.

وطفحت وجنتا ستورم بحمرة شديدة فيما بدت نحيلة ضعيفة للغاية في قميصها وبنطلونها. ومرّت دقائق طويلة وهي تتأمل مكميلان، الذي ظهر كأنه على استعداد لان يثور في وجهها فور تلفظها بأية كلمة لا ترضيه. واوحى وجهه بانه من الحماقة اغاظته. غير ان صغر سن ستورم حرمها ميزة استيعاب الرأي السديد. لذلك قالت وقد كاد نفسها ينقطع:

- أرى انه من الخطأ الا يكون للمرء اربع قوائم في هذا المكان! فالثور يستأثر باهتمامك اكثر مني.

- اشاطرك الرأي اذا ما قيس الثور بقيمته المالية. لكنني اريد ان اؤكد لكِ انني لن اسمح بالتجوال وحدك بعد اليوم. فبالامس فقط اوقفت ستة من عمالي عن عملهم بقصد البحث عنك، واليوم لم تنوائي عن مهاجمة حيوان مسكين لا ينوي بك شراً. وغداً من يدري ماذا تفعلين؟

اجابته متحدية:

- لماذا لم تأتِ انت؟ انك تجهد نفسك وكأنك عبد للعمل.

- حسناً يا كاترين الذكية! لقد ادخلت نفسك في ورطة قاسية. أنا احترم حقوق المرأة لكنك تسعين الى اثارة المشاكل. لكن ارجو الا تضطربي فانا هنا ما زلت صاحب الأمر والنهي.

سألته وقد التمعت عيناها شرراً وغيظاً وتحدياً:

- هل تجسر؟

والمشكلة انه تجرأ، فحاولت ان تهرب وهي تصيح:

- لا يمكنني ان اصدق انك تجرؤ على ضربي. اولست امرأة؟

- لست سوى شخص مزعج ومؤذ. وطالما بدأت باللعبة، دعينا نكملها على هواي.

- آه، كوين!

تقلصت عضلات فمه:

- ماذا حلّ بمكميلان العجوز المحترم؟ لا داعي للهمس يا كاترين فلا احد هنا. والجميع يعرفون المثل الشائع: لا تشتر العبد الا والعصا معه. فمن أنا حتى اعترض على هذه الحكمة؟ ستؤدّبين على ماضيك والمشاكل التي قمت بها أخيراً.

واعلنت وهي تواجه مصيرها المحتم:

- لا تحسب اني عاجزة عن الدفاع عن نفسي.

واقترب منها هازئاً. ثم مددها على ركبته، وصفعها. فحاولت ان تصيح. لكن صوتها اختنق فيما رددت:

- يا لغرورك! يا الله كم انت مغرور ايها الوحش البارد الاعصاب!

فزاد عنف ضرباته موضحاً:

- اكفيني شرّك. اني أعرف تماماً ماذا افعل. والكلام لن يفيد معك لانه لا يكاد يرنّ في مسامعك حتى يتبخّر.

اغرورقت عيناها بدموع اليأس. يا لسخرية القدر الذي يعاقبها عندما اندفعت على طريق الاصلاح! انه يعمل على قلب شخصيتها رأساً على عقب. ويستعمل العنف! انه لا يعرف الا ذلك.

- هذه هي الطريقة المثلى والبسيطة. وأظن انك نلت جزاءك يا كاترين.

- لم تنل مني شيئاً. فأنا ما زلت ستورم العاصفة.

وسدد نظره الى عينيها الخضراوين المتطايرتين شرراً، والى وجنتيها المحمّرتين، وشعرها المشعث بعض الشيء:

- ربما لم انجح. ولكن هل نجح لايسي.

وانقضى وقت طويل قبل ان تفتح عينيها لتراه يتأملها بهدوء. فبرّرت نفسها قائلة:

- انك كفوء في كل اعمالك.

- لا احب الغزل في الساعة المبكرة من الصباح.

ادارت رأسها بعيداً. واخفى شعرها جزءاً من خديها:

- وهل تعتبر ذلك غزلاً؟ لقد ظننته ضرباً من التعذيب.

- انه كذلك. وانه لعقاب أيضاً. وقليل من الخبرة لا يؤذي احداً يا كاترين. انك طالبة مجتهدة. ولكن بامكاننا الآن ان ننسى الدرس بعد ان انهيناه.

- لست اخالني قادرة على ذلك.

- حسناً! انك تعامليني كرجل نصفه مجنون ونصفه الآخر قديس.

- كم يجنح خيالك! فانا الآن بكل تأكيد لا أقوى على هذا الاعتبار بعد ان رأيت مهارتك وتصميمك. انت تعرف ما تريد بالضبط، على ما يبدو... لماذا لم تتزوج يا مكميلان؟

أجابها وقد تحكم بمشاعره دون ان يغيب التوتر من نبرة صوته:

- سوف اعالج هذا العيب عما قريب. وسأدعوك الى حفلة الزفاف.

علقت وقد احست بنشوة المنتصر لظنها انه سيتأثر بما قالت:

- هيّا أسرع. لكنني لن احضر.

- ربما كان من الأفضل ان اسحبك من شعرك. هيّا انهضي يا كاترين.

- سأفعل. فلقد حرمتني من قدرة النطق بعض الوقت.

ورأى للمرة الاولى خلفهما حصانه الأسود الكبير ينظر اليهما باذنين منتصبتين، وقد التمع جلده البرّاق في وهج الشمس.

وتطلع الى وجهها الناعم النحيل. ورأى مشاعرها مكتوبة على صفحته. فدنا منها وادخل احدى خصلات شعرها وراء اذنها قائلاً:

- عظيم! حان الوقت لبعض التغيير.

وسألت بشيء من المرارة:

- اذا كان شعري لا يعجبك، فبامكاني ان اقصه.

رد عليها بنبرة حادة:

- بل احبه.

فسألته بنبرة متقطعة فيها كثير من التصنع والتكلف:

- هل ستكون في المنزل طوال النهار؟

- عليّ اللعنة اذا كنت اعرف. والأمر الوحيد الذي ينبغي فهمه يا كاترين ان عليك ان تتسلي بالقرب من المنزل لأني ارسلت لايسي الى مرصد عصافير الناقوس.

اجابته وقد تحولت الرعشة في اعصابها الى غضب حزين:

- تقول هذا وكأنني مهتمة بالموضوع.

فعقّب بشيء من الاصرار:

- اذا اردت ان اعاملك معاملة المرأة الناضجة، فكوني كذلك. عودي الآن الى المنزل واكتبي بعض بطاقات الدعوة الى حفلتك.

فصاحت وهي لا تكاد تصدق:

- انها ليست حفلتي.

- ليست حفلتك! اننا لا نقيم حفلة لمئة شخص أو يزيد في مناسبة عيد الميلاد.

علقت وقد كادت نبرة صوته المتعبة تبكيها:

- حـ... حسناً! يخيّل اليّ انه من المستحيل ان يقيم احد حفلة على شرفي.

- الم تخبرك ايلينور؟

- لم تقل كلمة واحدة.

- اظنها كانت تنتظر حتى يتحسن سلوكك.

وأحس ان سوطاً يجلده عندما سمع صرختها المكتومة. فقال بحدة وهو لا يريد الظهور بمظهر المندهش:

- اني آسف. فانا لم اقصد ان اؤذيك. في ايّ حال، عودي الى

المنزل يا كاترين.

وادار ظهره لها، ورمى بنفسه على سرج الجواد دون ان ينطق بكلمة اخرى. وحلّق في تلك الاثناء سرب من العصافير فوقهما، فيما هب النسيم في اعالي الشجر دافئاً طليقاً مثل مكميلان. بعض الناس يظهرون بمظهر الاحرار الطلقاء الى اقصى الحدود بالرغم من مسؤولياتهم والتزاماتهم. كل ما في الوجود فقد قيمته، بالنسبة اليها، أمام اهتمامه بها. ثم ادار الحصان، واندفع على طول الضفة.

واتضح انه نسيها. وتوجب عليها ان ترجع، والا ابقت الخالة ايلينور منتظرة. تملكتها رغبة بالانحناء ورش وجهها بالماء البارد الصافي الذي انبعث منه رائحة خفيفة لنبات السرخس. ونبض قلبها بعنف مثل قلب طائر اسير. أي قوة خفية حدت بمكميلان ليعانقها؟ لقد ادركت انه لم يعرف الرغبة والنزوات مثل لايسي، وانه لو لم يعتبرها امرأة لكان عناقه لها كعناق اية امرأة اخرى.

ولامست فمها النابض، بينما اخافها خفقان قلبها. سيغدو تفكيرها بكوين مكميلان بعد اليوم اشبه بركوب البحر الهائج. فالانطباع الذي تركه في نفسها بالغ الاثر، وكان بامكانه ان يخلّصها منه. لكن ها هي تقف الآن مذهولة وقد تبلل حذاؤ ها... وقررت ان تسأل بعد عودتها الى المنزل الخالة ايلينور عن اسم المرأة التي يفكر بها. مع انه من المخيف ان تسمع مثل هذا الجواب. من هي المرأة التي عزم على الزواج بها؟ هذه المخلوقة المجهولة الاسم، التي احسنت الابتعاد عن الاضواء.

لقد اتسعت خبرتها في الغزل، ولا حاجة بها لدخول الجامعة حتى تتعلمه. فبراعته في هذه الأمور لا تجارى. لكنها لن ترتفع الى مستوى مكميلان ولذلك لا طائل من التفكير بلقائهما العذب الحار، علماً بانه امر شيّق. والمشكلة انها لم تحكم، بل عاشت واحست... وللحواس عالمها الخاص، وحيويتها وقوتها التي تطغى على عقول الكثيرين من الرجال والنساء الاذكياء وحياتهم واعمالهم

وآثارهم...

وادركت فجأة ان حب الرجل غير المناسب يسبب المأ لا يوصف. وكادت تفهم سبب ضياع والدتها وفراغها العاطفي وسعيها المستمرّ للعثور على رجل يقدر جوهرها، ولا يهتم بجمالاتها الجسمية، دعك من ثروتها الكبيرة. وقد سعى الاميركي الجنوبي في اثر مويا فيتسجيرالد وهو يملك منجماً للقصدير او مورداً من موارد الطبيعة الاخرى. ولا يسع المرء الا ان يتمنى ان تبقى والدة كاترين على العهد. فقد ادركت الفتاة من معرفتها القليلة بزوج امها انه لا يطيق اقامة اي نوع من العلاقة خارج الرباط الزوجي، من جانب زوجته طبعاً. فهو متمسك بالاعراف والتقاليد، التي تسمح للرجل باشباع رغباته، وتحرم على المرأة التعبير عنها لأن ذلك كاف لادخالها نار الجحيم. آه، لا شك ان الخالة ايلينور ستلقى وصفاً حياً عن الحياة في ريو دي جانيرو.

ولما اقتربت ستورم من رياض المنزل الخضراء واشجاره ونباتاته الزينية الظليلة، التي يرويها نبع يتفجر تحت الارض، لمحت تادو ابن جنتي. وجنتي هي امرأة من سكان استراليا الاصليين تزوجت طوماس رئيس الرعاة، والعامل تحت ادارة السيدة بيكت، مدبرة المنزل. وتادو الصغير هو اسعد اطفال الارض بروحه النشيطة ومعنوياته العالية وجلده الحاد السمرة وشعره الاسود المجعد وانفه الافطس وفمه الصغير وعينيه السوداوين المليئتين بكل ما في الدنيا من مرح. وزين شعره هذا الصباح بازاهير الاقحوان الصفراء والبيضاء.

ولعل مرحه ناجم عن تأثير الارواح التي يتعلم ابناء سكان استراليا القدامى أصول علاقتهم بها في مرحلة مبكرة من حياتهم عن طريق نساء القبيلة. والاولاد اضافة الى جميع الملونين من سكان مندلا يقيمون على ايمان راسخ بوجود جو من الالفة العظمى. خجلت ستورم اذ فكرت ان تقول ذات مرة انه زال من الوجود.

واكتشفت ان مكميلان الحكيم ينشغل بمثل هذه الأمور كسكان مقاطعته من المواطنين الاصليين ورفاهيتهم، ويهتم اهتماماً صادقاً بحضارتهم القديمة.

وبدا ان تادو التحق بروضة الاطفال لان سكان استراليا الاصليين يعتنون غاية العناية بتدريب الاطفال وجذب اهتمامهم الى الامر اضافة الى تنشيط مخيلتهم الخصبة. وظهرت على تادو، وهو في الثانية من عمره ربما، امارات الحيوية والنشاط والاقدام والاستعداد للترنم بأناشيد عديدة، واداء حركات رقص مختلفة. وكان اهتمام تادو بالرجال من بني جنسهم، وعملهم وقطعان الماشية من حوله، واسلحة الصيد التي يستعملها الكبار اسطورياً، مميتاً، على حد ما ظنت ستورم. لكن تادو عرف كيف يرعى نفسه خصوصاً وان فنون الصيد في تلك البلاد تُلقّن للاطفال في المهد.

ولما لم تكن قد رأته يضرب ركبتيه حسب ايقاع سريع - مثلما فعل اليوم - اسرعت نحوه والتقطته ورفعته عالياً. فصاح مرحاً. وسألته:

- اين كنت؟ في روضة الاطفال؟

واتى جوابه سلسلة من الكلمات الغريبة غير المفهومة.

- هيا بنا نتناول شاي الصباح. فماما لن تعترض.

رد عليها بعبارات مبهمة لم تفهم منها سوى كلمة «كعك».

والاطفال في كل انحاء العالم سواسية في تجاوبهم مع اهتمام الكبار وحبهم لهم. وهم بحاجة لهذه العواطف حتى يحققوا ذواتهم ويعرفوا السلوك الذي يجب ان يسلكوا في حياتهم. وتأملت ستورم وجه تادو الصغير البريء المشرق الابتسام، وقررت انها لن تقبل الزواج برجل الا لانجاب الاطفال، الذين تحبهم وتود الاستماع اليهم وضبطهم حين تدعو الحاجة. وستسهم في تربيتهم وتكوين شخصيتهم. كما انها لن تتخلى عنهم ابداً.

واقسمت على ذلك، مما اكّد نضجها وتبدّل شخصيتها.

وفوجئت ايلينور، التي راقبت تقدم الصبية والطفل، من حقيقة

شعورها تجاه كاترين الشابة، التي انطلقت خلال فترة قصيرة لتكوين جو خاص بها. فهي مرحة لا تعرف الحقد والضغينة. وقد نمت شخصيتها خلال الفترة الماضية بسرعة عظيمة الى حد ان ايلينور نفسها لم تعد تذكر كيف كانت كاترين في الاسبوع الاول بعد وصولها. ولم تخش كاترين احداً الا كوين مع العلم انها اصرت على مناداته «مكميلان»، الامر الذي لم يرق لايلينور. لكنها تحلت بروح ممتازة، وعقل منفتح، وبعض الفضول والمرح. كما اظهرت كل الاحترام اللازم لايلينور. ولم تثر بالتالي غضب كوين.

والحقيقة، باختصار، ان ايلينور سرت بتقدم كاترين، وحزنت لعدم ملاءمتها لايسي، خصوصاً وان الابقاء على صحبة هذه الفتاة الرقيقة امر ممتع للغاية. الا ان ذلك ينم عن انانية مروعة علماً بانه لا داعي لحث الفتاة على الاسراع في تحصيلها العلمي. فهي لا شك ستفيد افادة بالغة من البقاء فترة طويلة في مندلا حيث تفتحت تفتح الازهار وزال مظهر التوتر والحقد البادي في عينيها وعلى فمها، حتى ان «نزعاتها الفردية» تضاءلت. وخسر لايسي بذلك شريكاً له في العابه التي تهدر الوقت وتضيعه وشارك كوين ايلينور رأيها ان مصلحة كاترين البقاء مدة اطول في مندلا. وطالما علق بالقول: لتتعلم كيف تسترخي. ولكن، من الافضل ان تحضري دبرا الى هنا.

ودبرا هي احدى ابنتي جارهما الاقرب، جوش آرمسترونغ صاحب مقاطعة آمارو داونز، الذي فقد زوجته ماري قبل أربع سنوات، وكاد يموت حزناً عليها. ولم يشف لغاية الآن من برحائه. ودبرا فتاة ممتازة حلت محل امها، واصبحت عكازاً يتوكأ عليها والدها ورأت ايلينور ان دبرا، وهي امرأة ريفية بطبيعتها لا تتعب ولا تملّ من بذل ذاتها في سبيل الآخرين، حصلت على القليل بالمقارنة مع شقيقتها الكبرى هيلنا، التي غالباً ما تردّدت على المدن والجبال ومنتجعات التزلج وزارت اوروبا ثلاث مرات على الاقل. اما دبرا، ففضلت البقاء بجانب والدها دائماً. وخصّصت قلبها لاسرتها،

معطية نصفه لوالدها ونصفه الآخر للايسي. ويذكر الجميع ان ايلينور لم تعجب بهيلنا حتى عندما كانت طفلة صغيرة. وهذا امر مستغرب بالنسبة الى ايلينور، التي لا تطيق التفكير بالسوء تجاه أحد. وهيلنا طبعاً فتاة فاتنة ببريق بنات المدن البارز على محياها، اعجبت بكوين. لكنها لم تساو في رأي ايلينور نصف امرأة. وقد اصابت لأن الفتاتين تميزتا بخصال متضاربة. فهيلنا، لا تكترث الا لنفسها ومصالحها وطرق تقدمها، في حين ان دبرا تكرس ذاتها لمن تحب وتهوى.

دعي افراد اسرة آرمسترونغ الثلاثة باجمعهم الى حفلة الميلاد، التي خططت ايلينور بصورة سرية خلال الأسابيع الماضية ان تجعلها حفلة تكريم لكاترين. وتمنت ايلينور ان تسمح حال جوش له بالحضور. وتحدثت تكراراً عبر الهاتف مع آمارو داونز، واكتشفت قلق دبرا المكتوم حول صحة والدها. خسر جوش آرمسترونغ كثيراً من صحته خلال الاشهر الاربعة الماضية اذ نقص وزنه بمعدل تسعة عشر كيلوغراماً. وطار به كوين الى مستشفى لونغبيتش لفحص دقيق اعلن هو بنفسه نتيجته المطمئنة. الا ان ايلينور شكت بأقواله، وتمنت لو تتصل بالطبيب بنفسها. ولكنها لم تكن لتفعل ذلك بالرغم من صداقتها الحميمة واخلاصها المطلق، اللذين حولتهما الى اسرتها من بعدها. ولم تشعر ان هنالك شيئاً يبعث على الطمأنينة على ما أدعى جوش. ولم تعد المزرعة، التي شهدت غنى ونجاحاً عظيمين في السنوات الماضية، الى سابق عهدها، خصوصاً وان الرجل قد اضاع صحته وقلبه.

ومن دواعي اسف ايلينور ان لايسي لم يظهر من التجاوب «الجسماني» تجاه دبرا قدر ما اظهر تجاه كاترين الشابة. الا انها وثقت من اعجابه الشديد بابنة آرمسترونغ الصغرى. والحقيقة ببساطة ان لايسي لم يعجب بشيء يحصل عليه بسهولة. ولم يغب عن ذهنه الاعجاب البارز بوضوح في عيني دبرا البنيتين. ولم تنقد كاترين

للايسي علماً بانها شاركتها العابه وحيله. وتمتعت كاترين بتفكير مستقل. وتزايدت الدلائل على انها تستغل هذه الميزة لتوسيع مداركها.

وقررت ايلينور انه من الصعب معرفة ما يريده الشباب بالضبط من الحياة في هذه الايام. فلقد تغيرت الاوضاع كثيراً عن ايامها دون ان تعرف اذا كان ذلك يؤدي بالشباب الى الاسوأ ام الى الأفضل. لكن ما عرفته حقاً انه لم يكن بالامكان تجاهل ذلك التغيير الذي قلب المقاييس والمعايير، واطاح بالاعراف والتقاليد القديمة. وهي ان شعرت بالارتباك احياناً فقد كانت تعرف انه يجدر بالشباب ان يختلفوا في تصرفاتهم وقد تخلوا عن كل معالم السلوك القديمة. لقد استمتعت بطفولتها عندما كانت بنتاً صغيرة حين كانت الأمور واضحة تسير حسب قواعد معدة سلفاً ومعروفة للسلوك. وغالباً ما قطب الكبار جبينهم عند ملاحظتهم ادنى انحراف عن القاعدة. اما الآن، فها هي كاترين تحضر لتناول شاي الصباح حاملة طفلا قذراً كما تبللت رجلا بنطلونها، وتشعث شعرها، وامتزجت ضحكاتها الرنانة بزعيق نادو الحاد. وسبى جمالها لب الناظر اليها بالرغم من الفوضى الظاهرة في هندامها.

يا لها من سعادة سماوية تغمر قلب الشباب المتمتع بنعمة الجسم السليم الخالي من الاضطرابات والامراض، والناعم بمزايا الشجاعة والتفاؤل وخصب المخيلة واحتمال اكتساب الخبرات المتنوعة، وفرصة تطوير مواهبه المتعددة وتوسيعها...

لم تقف مكتوفة اليدين، بل نضجت بسرعة. واذا كان بالامكان الاعتماد على ما ينطق به وجهها الفتي النضر، فلا شك انها تعتبر مندلا مملكتها.

٦- في الحفلة التي أقامتها لها إيلينور، صارحته بأنها مهتمّة به منذ زمن، ولكنها لم تتلق الجواب الذي كانت تتوق إليه. . . ووقفت حائرة من تهرّبه ونظرته إليها، لتعلم، أخيراً، انه يخفي حقيقة شعوره نحوها.

اندفع لايسي في صباح اليوم الذي وصل فيه افراد اسرة آرمسترونغ الى المطار بصحبة ستورم في الجيب المفتوح. وازعج انطلاقه العصافير المستريحة، والأزاهير المطمئنة خصوصاً وأنه جمع في مزاجه شيئاً من المودة والعدوانية معاً. ثم رفع رأسه ونظر اليها مشدوهاً:

- قبل ان تحضري يا فتاتي الجميلة، كانت دبرا. . .

اسكته ستورم اذ رفعت رأسها بسرعة:

- لنضع الأمور في نصابها. فأنا لست فتاتك ابداً.

- سبق وقلت يا حبيبتي، لو لم تظهري على المسرح، لكان رأيي قد استقر على دبرا وهي الخالية من اي سحر او جاذبية علماً بانها صغيرة القد

مفعمة بالحيوية سمراء جميلة. وهي ابنة ابيها الصغيرة المدللة. واعتبرها مولعة به الى اقصى الحدود.

علقت ستورم وقد قررت الدفاع عن جوش آرمسترونغ:

- هل يمكن لأحد ان يكون مولعاً بوالده؟ الخالة ايلينور تؤكد ان صحته ليست جيدة.

- ليست حالته سيئة كما تدعي ايلينور. انها تبالغ. اعتقد انها قد تدهورت بعض الشيء، لكن جوش آرمسترونغ في العقد السادس من عمره، ولا بد لصحته ان تسوء كما تعلمين. اما ابنته الثانية، هيلنا، فهي على صلة حميمة بكوين.

- حقاً؟

- حاولي استراق السمع الى بعض احاديثهما. فأنا لا أريد ان يخبىء القدر لك مفاجآت جديدة. والحقيقة انني لا استغرب ان يتلقيا التهاني قبل بداية العام الجديد. فقد لعب كوين اللعبة بجدية، وجعل منها امرأة مستقيمة.

- هل اقام معها علاقة سرية؟

قهقه لايسي:

- ايتها الحبيبة!

- هل تحب هيلنا هذه؟

- فوق ما تتصورين. انها اشبه بشقيقة اضعتها منذ زمن بعيد. انها جريئة وذكية، وهذه هي ميزات المرأة الحقة. كما انها ثابتة على رأيها، اقامت على حب كوين بالرغم من كل اسفارها. واني احب المرأة المخلصة، وأرى انها تستحق المكافأة. لكنها لا تراف كثيراً بدبرا الطيبة المخلصة، والمعطية بسخاء. والاغرب من كل ذلك اني معجب بها بعض الشيء بالرغم من كل ذلك.

- ارى انك لا تحب سوى نفسك.

- اتذكرين ما قلته عن الجرأة؟ انني كلف ببتيمة مسكينة امتع ناظري بوجهها منذ الصباح والى المساء.

ـ اعرف تعاليك. ولكن، هل يمكنك ان تحول نظرك الى تلك البقعة الصغيرة هناك؟ اليست هي طائرة السسنا؟

ـ انها تقترب من المطار الذي سيمتلىء مع حلول الظلام بالطائرات، فتحسبيها سرباً من العصافير. اما جوش، فهو شخصٌ رائع يتخلى عن صمته بعد ان يروي ظمأه. وهو يقبل الارض التي يقبلها شقيقي كوين.

ـ لماذا كل ذلك؟

ـ انك تعرفين كوين، وكيف يهب لمساعدة هذا وذاك. انه لرجل شهم.

عقبت ستورم بهدوء شديد:

ـ يمكننا ان نتفق كلنا على هذا الرأي.

ـ اجل. انه كذلك بحق السماء. انه لشخص محبوب فعلاً.

فنبهته ستورم بلهجة جعلته يحدق اليها بدقة فيما اوضحت:

ـ لا تبد مثل هذه الملاحظات الساخرة حول شقيقك. فهي لا تدل على روح رياضية تتمتع بها، بل على غضبك. لماذا لا تنضج وتكبر؟

أجاب لايسي وهو يطلق صفيراً خفيفاً:

ـ يا الهي! يا لك من بطلة صنيرة! اني سعيد يا حبيبتي ان تذكري ذلك في الوقت الذي ظننتك تزعجين كوين.

ـ هذا صحيح في الأحوال الاستثنائية، لكنه لا يحدث عادة.

قال لايسي بحدة:

ـ لا حاجة بك للصياح يا عزيزتي. فانت لم تفاجئيني. وأرى انك لا تظهرين نحوه اياً من ردات الفعل الانثوية الطبيعية.

ـ وما هي ردات الفعل هذه؟

رد لايسي ببعض المرارة:

ـ لست حمقاء ولا بلهاء. فانا أعرف انني لن اقدر على مجاراة كوين. هذا امر صحيح ومرغوب فيه. لكن كوين ليس بحاجة الى دفاعك عنه.

ـ عليك ان تقر بانه لا يفخر أو يسعد في اي من الحالين. واذا كنت لست حلم النساء المثالي، فانك لا شك جذاب وساحر يا لايسي كما

اوضحت لك ذلك دبرا بالتأكيد.

اجاب دون ان يتغلب على ثورته:

ـ الحقيقة، كلا. فدبرا لا تعبر عن مشاعرها التي اعرف مدى عمقها.

اجابته ستورم مصرّة:

ـ لا تعتد بنفسك.

خجل لايسي، وسألها ببرودة:

ـ ماذا دهاك؟

ردت مندهشة:

ـ لا شيء. فأنا ما زلت كما أنا.

ـ بل انك تبدين غير مقتنعة. الا انك لن تنجحي في تغييري يا ستورم الحبيبة. فأنا كما أنا.

قالت ببعض الجفاء:

ـ لا يساورني الشك في ذلك. فعليك ان تفكر يا لايسي العزيز بأن من واجب الجميع ان يكشفوا نفوسهم ويحسّنوها.

وجّه لها لايسي سؤالا طغت على نبرته الكآبة:

ـ لماذا تلقين هذه المحاضرة الصغيرة في احرج الاوقات؟ يجب ان اكون كاملا. اني اعرف ذلك، واسعى جهدي في سبيله. ولكن، دعينا نغير الموضوع قبل ان يحتدم النقاش. فلا يمكنني ان اعرف ماذا جرى لك الا اذا كانت الغيرة تنهشك.

اوضحت ستورم بايجاز، علماً بأنها من الممكن ان تكابد الغيرة في نهاية المطاف، ولكن ليس على طريقة لايسي:

ـ يمكنك ان تتخلى عن هذه النظرة الغريبة. فأنا لا اعرف الغيرة.

عقّب لايسي وهو مغرق في التفكير:

ـ الغيرة! أظنها تعرف طريقها الى قلوب الجميع. لكن، لا تهتمي يا ملاكي. فلنتصالح. فأنا لا أريد ان اجادلك. صحيح أنني اتأثر بالفروق الواضحة بيني وبين كوين، الا اني عشت طويلا في دائرة ظله. جربي ذلك بنفسك، واعلمي حقيقة شعوري. فهؤلاء المتقمّصون شخصيات

ثم ادارها لايسي نحوه صارخاً:

- لا تصيحي في وجهي يا فتاتي.

حذرته وعيناها تقدحان شرراً والحمرة تكسو وجهها وفمها يرتعش:

- افلتني، والا ضربتك بقدمي على قصبة رجلك.

علق لايسي ببطء هامساً:

- كلا، لن تفعلي. فانت لست التي تفعلين مثل هذا يا زهرة الريح. الا يناديك كوين هكذا عندما لا يدعوك بسخف «كاترين»؟ لن ترفسيني على قصبة رجلي لأنك سيدة محترمة ومحتشمة. ربما لا تعرفين هذه الحقيقة: لقد اصبحت رقيقة في مندلا حيث يغدو الجميع خشنين صعاب المراس. اما انت، فلا. بل زدت فتنة وسحراً يسبيان عقلي.

- ان الجميع يراقبوننا.

- وما شأنهم بنا؟ انني استغرب بعض تصرفاتك الأخيرة؟

انتفضت واجابته:

- ارجوك يا لايسي. من الجائز انني لنت قليلا، لكنني في اي حال اكره السلوك المشين. وعليه، قدني الى المدرج وعرفني على عزيزتك دبرا.

- فلتذهب دبرا الى الجحيم. انني اريد ان تلتقي بمنقذة كوين، التي كادت تشتعل لو كان قميصها اشد اشراقاً. انها فتاة ساحرة علماً بأن شعرها لم يكن زاهياً يوماً، بل طالما حاكى شعر دبرا البني الباهت.

ثم قادها بين نباتات الاكاسيا الى ان بلغا المدرج حيث وقفت مجموعة صغيرة بانتظارهما. ولما مدت ستورم يدها لمصافحة جوش آرمسترونغ، الذي كان عضواً في نادي الأسود ذات مرة، رأت فيه شبح رجل كتب عليه ان يلقى مصيره المحتوم سريعاً. واشرقت حول وجهه هالة لطف استغربت الا يكون لايسي قد رآها. واستقر رأيها على ان لايسي انانياً في حين ان دبرا، التي لم تتأثر بمشهد لايسي وستورم تحت الاشجار بل افتر ثغرها عن ابتسامة دافئة لها، اظهرت لطفاً بالغاً تجاهه.

الا ان ستورم لم تعجب بهيلنا الطويلة النحيلة وذات العينين السوداوين والشعر الاسود. واعتبرت ستورم انها احسنت التصرف عادة

الأبطال يعقدون الأمور بالنسبة الينا نحن الصغار. لذلك تخلي عن خيبة الأمل البارزة على قسماتك.

انحنت ستورم نحوه، وربتت على يده قائلة:

- لا تقلق يا عزيزي. فأنا صديقتك. والأفضل ان تسرع لأن السيد ينتظر وصولنا. فلنذهب لاستقبال ضيوفنا.

قفز لايسي من الجيب وهو يقول:

- انتظري لحظة حتى يهدأ الغبار المتطاير.

وبرز التوتر على وجه لايسي، فيما سددت ستورم نظرها الى المطار حيث وقفت مجموعة صغيرة من المستقبلين يترأسهم كوين بقامته المديدة، والخالة ايلينور الرقيقة الشفافة مثل قطعة من البورسلين، وتيم بيكت وكيل اعمال كوين، اضافة الى عدد من مساعديه البارزين المعروفين لدى جوش آرمسترونغ وابنتيه.

وتوقفت مراوح الطائرة التي تحركت على المدرج المحاط بالاعشاب الخضراء النامية. ثم انفتح الباب وانطلقت منه فتاة برشاقة الغزال وسرعته.

- كوين!

حذر لايسي ستورم ضاحكاً:

- انظري ماذا سيحدث. تأملي ملابسها المزينة بنقوش من نقاط سوداء وبيضاء، وقميصها الأحمر القاني. انها ترتجف، لكنها ستتدبر امرها. ولا اشك في ان هيلنا ستفعل كل شيء للحصول على كوين.

فسألت ستورم بحدة:

- ولماذا تتوقف عند هذا الحد؟

رد لايسي:

- لأن كوين لن يفقد رجاحة عقله.

فصاحت ستورم:

- اني اعتبرك سخيفاً تبعث على الاشمئزاز.

- لماذا؟ لماذا تقولين ذلك يا ستورم الحبيبة؟ ما الدافع الى قولك؟

واتقنت أصول السلوك. لكن هيلنا رمتها بنظرة حادة خلا معها وجهها الدال على ثقافة ورقي من اي اثر للبسمة. وارتدت هيلنا ملابس رائعة. غير ان ستورم رأت ان كوين يشاطرها رأيها مؤكداً ذلك بملامحه الساخرة. وان بدت دبرا حمامة، فان هيلنا صقر. ومن الصعوبة بمكان اعتبار هيلنا ضيفة الشرف في حفلة جعلت لتكريم ستورم. واكتشفت ستورم للمرة الاولى في حياتها ان اثوابها تناسب كل الظروف، وذلك بفضل ذوق امها الرفيع الذي لا يجارى. ولعلها تتقي احدها لدبرا لولا خوفها الا يستطيع لايسي تمييز سمرائه الصغيرة ان هي اعتنت قليلا بمظهرها. وادركت ستورم الرقيقة القلب بالرغم من كل مظاهر قوتها قلق دبرا وخوفها منها. غير انها تيقنت ان لايسي سيهتم بدبرا خلال الحفلة، والا فلن تقبل ان تكون ابنة بابلز فيتسجيرالد بعد اليوم ومعروف ان بابلز فيتسجيرالد حولت كثيراً من القبيحات حسناوات يثرن الاعجاب بمجرد كلمة نصح عابرة القتها على مسامعهن وهن يصعدن سياراتهن بعد حضور احدى حفلاتها. اما هيلنا، فوجهت الى ستورم نظرة استخفاف تكراراً. ثم اوقفها مكميلان قائلا:

- تمهلي يا كاترين. فانا لا اجد وقتاً لمحادثتك هذه الأيام.

وردّت عليه بابتسامة غريبة:

- هذا لانك لا تجد وقتاً لمناجاة نفسك.

فتفحصها برهة بصمت بينما نقل عينيه على وجهها:

- لماذا تسمحين للايسي بافساد افكارك؟

قالت وهي تجهد النفس لاخفاء الثورة من نبرة صوتها:

- انه لا يفعل.

وكادت تصرخ: «انت الذي تفسد افكاري». ثم سألته وهي تترنح قليلا بينما اتسعت عيناها الخضراوان وارتفع حاجبها الدقيق:

- اخبرني، هل التقيت المرأة التي تملأ حياتك؟

- اطمئني. انها هنا.

- انني لا احبها ابداً.

فانتصب فجأة. وبدت صغيرة مذعورة امامه. وقال بصوت الزمتها نبرته على الصمت بينما كان يسدّد نظره اليها:

- وانا لا احبها احياناً. الا ان ذلك ليس موضوع حديثي معك يا كاترين.

اوضحت بصوت مخنوق بينما ضربت الارض بقدمها:

- حسناً. هيا تكلم. فأنا كلي آذان صاغية. ولكن، اسرع. فهيلنا الحسناء تنتظر. ما اعظم استئثارها بمن تحب. أرجو ان تفكر بهذه الحقيقة يا مكميلان.

- لن اجرب نصيحتك الآن. فدبرا هي من اود التحدث عنها معك.

اكدت باصرار:

- انس الموضوع. فأنا حادة الذكاء وسريعة الاستيعاب عندما يتعلق الامر بهذا الموضوع. فدبرا ولايسي يحبان بعضهما منذ طفولتهما.

- ما قلته يختصر الموضوع باكمله. وتيقني ان لا احد يريد ان يتألق نجمك في حفلتك اكثر مني. ولكن، ارجو ان تعطي دبرا الفرصة لانها شديدة الصمت والانطواء على ذاتها.

فسألته بعينين غاضبتين:

- اليس بوسع شقيقتها ان تساعدها؟ فهي جذلة ومزهوة بنفسها، ولا يقدر احد ان يصفها بـ«الخجولة».

- لا تتجني الخوض في موضوعنا يا كاترين.

- علي اللعنة اذا كنت اعرف ما هو موضوعنا.

طغا بريق الثورة على عينيه السوداوين:

- ربما ظنت دبرا نتيجة مشهدكما قرب الجيب انك منافسة حادة لها. والحقيقة ان ذلك ليس صحيحاً.

- من قال ذلك؟

أجاب وقد تحكم بنبرة صوته:

- أنا أقول هذا. وانني اعرف ان كل مغامراتك البريئة مع لايسي لا تعني شيئاً.

عندئذ اقترب منها قليلا، فخانتها عداوتها الحادة له. وقالت:

- ارجو المعذرة يا مكميلان. فانا لم اقصد ذلك ابداً.

وخطر لها انها مفتونة بسمائه البهية. ومن الطبيعي ان تعرف ذلك الاحساس بالافتتان وهي في التاسعة عشرة من عمرها. فقد ارتبطت والدتها في هذه السن بالكونت الايطالي، وتلك اولى محاولاتها في دنيا الزواج. وهنا قالت بحزن:

- حسناً يا مكميلان. اعتقد انني سأساعدك. فأنا مدينة لك بالكثير.

ردّ باقتضاب:

- لا تتحدثي عن دينك لي. فلن اسمع.

- يا لعاطفتك النبيلة! انني اشكرك.

- لا تعودي الى مثل هذه الاقوال، والا ضربتك حتى تصرخي مستغيثة...

- لا تضربني، بل عانقني.

لمعت عيناه والتوت شفتاه هزءاً وقال:

- لا احسبني اجرؤ على ذلك. لذا وفري علي عناء المجاسرة.

واحست ان صوته المثير لم يخل من الدهشة. فقالت:

- انك تظهر عكس ما تضمر.

توقف فجأة. فكادت تصطدم به اذ عدت للحاق بمشيته. وسألها:

- ماذا تقصدين؟

ثم ضغط على ذراعها. فاوضحت متلعثمة:

- ما حاولت قوله هو اني ظننتك فوق هذا النوع من التصرفات... اي انك لا تلجأ الى الالاعيب الطائشة.

- وخاب ظنك؟

وحلقت ببغاوات اللوركت المرتوية من الرحيق فوقهما. واطلقت صيحات ذعر فيما اضطرمت نار مدفئة في قلبي مكميلان وستورم. كم كانت مشاعرهما عفوية وبدائية! عندئذ فقط ادركت ستورم ان مشاعر الناس من رجال ونساء عفوية وبدائية في حقيقتها واعماقها، وراقية

ومتمدنة في الظاهر منها. ولا تشكل بالتالي سوى مظهر خادع. واحست بنبض الحياة في عروقها والحيوية في دمها من ناحية، وبعجزها عن التفاعل مع عظمة الوعر المترامي حولها والعاطفة الجارفة التي ازدادت قوة ووضوحاً من ناحية ثانية ولم تدع الحاجة الى تفحص مشاعرها بدقة لأنها كشفت عن نفسها بقوة من القلب ماثلت واحة من الجمال الاخاذ في وسط صحراء الحياة الرتيبة الجافة. لقد حدث لها حادث غريب. لقد وقعت في قبضة الحب. فالتقطت انفاسها خوفاً منه. وتيقنت انه لن يجديها نفعاً. ولكن، هذه هي الطريقة الوحيدة. فالعودة الى صومعتها لن يفيدها بشيء، ان لم يكن اسوأ مما هي فيه الآن. ولا شك ان مكميلان كان من الممكن ان يتزوج.

وقررت ستورم وهي تطفو على امواج سعادتها المنسابة بهدوء ان لا حفلة في العالم تجاري حفلات امراء الريف الاستراليين المنعزلين مرحاً ودفئاً. كم بعثت مندلا الحياة والقوّة في مشاعرها! فاغرورقت عيناها بالدموع حيناً وتألقت بالمرح احياناً. فهؤلاء الناس يهتمون ببعضهم فعلا. انه صنف آخر مختلف عن المتمدنين المتملقين المحيطين بوالدتها، والذين يحضرون حفلاتها ويلتهمون ما تقدمه من اطعمة ويضحكون عليها في غيابها، ويحسدونها في سرهم على نمط عيشها وجمالها وثروتها الموروثة.

اما المحيطون بها، فابناء الريف الباقون على صلة وثيقة بالطبيعة وعالمها الرحب. وترتبط وجوههم وأصواتهم ومرحهم المتميز بجذور الانسانية ونبلها. وانعكس اهتمامهم ببعضهم في الطريقة التي تبادلوا فيها المساعدة، والتي يمكن تأكيد حقيقتها في أن ورثة الاملاك الكبرى الذين تتاح لهم فرصة اقامة الحفلات غالباً ما يلتقون في مهرجانات ضخمة تعتبر مناسبة للمسرة والفرح، ووسيلة لاظهار دفء قلوبهم الشامل وقدرتهم العظيمة على الاستمتاع بالحياة بعد انتهاء عمل النهار.

واضافت مندلا الجميلة لنفسها بعداً آخر في الليلة التي سبقت الميلاد. فالواقع ان كل حجرة وقاعة استقبلت الضيوف. شرعت أبوابها على

مصراعيها فيما انعكست الاضواء الذهبية في كل مكان داخل الحديقة المليئة بالاشجار الوارفة الظل والشجيرات القصيرة ذات الأصول الاسترالية والازهار البرّية العابقة بأريج حاد. اما النجوم الساطعة لحظة والباهتة لحظة، فقد انارت السماء بكثرة بينما انعكس بريقها على صفحة البحيرة الساكنة. وعجز المرء في مثل هذه اللحظات ان يفهم ان منذلا مستوطنة منعزلة حققت اكتفاءها الذاتي تحدها الصحراء الصخرية وتمتد مترامية الاطراف بحيث لا تطال سحب الدخان حدودها.

وسبى كل ما في الطبيعة ستورم التي مدت نظرها فوق درابزين الشرفة. فالليل نابض بالحيوية، والحديقة المظلمة عادة منارة الآن بمئات المصابيح ذات الاشعة الوردية والذهبية والبنية، وازهار البورونيا التي تنشي النفس بعبيرها. وانتعشت اذ شابهت ليلتها حلماً جميلاً. وتلألأ الضوء المنبعث من الثريا الكبرى المعلقة في الممر على ثوبها الناعم الرقيق الاصفر بلون الشمس والمزود بياقة قميص صغيرة وقد غطى تنورة واسعة بينما توسطه زنار عريض. وتدلت من عنقها سلسلة ذهبية علقت فيها قلادة تبين عندما استدارت نحو الضوء انها جميلة وثمينة صنعت من الاويال. اما هي، فلم تعرف ذلك. وكل ما عرفته أنها احبتها وقررت الاحتفاظ بها الى الأبد. فهي هدية قدمها اليها مكميلان بمناسبة العيد. وقد اخرجها من قلب الحجر الرملي بواسطة ازميل مقعر. ومنجمها يقع في منطقة الأميال الثمانية القرنفلية والبيضاء في محلة كوبر بدي، وهي من آثار البحر الذي امتد داخل اليابسة قبل التاريخ. وتتكاثر فيها حجار الاويال. وهذا الحجر ملون بكل ظلال اللونين الازرق والفيروزي وبصبغة زمردية خفيفة وتموجات قرمزية نارية. وتتميز بعمقها. ونظراً الى ان مكميلان احتفظ بها سنوات عديدة وابدى اهتماماً بالغاً بها، اعلن انه ربما احاطها يوماً ببعض من ماسات الماكفنز فاوضحت:

- ربما اكون قد تزوجت عندئذ، ولم يهتم زوجي بالهدية!

اكتفى كوين بابتسامة لأنه ادرك مشاعرها بالرغم من انها حاولت اخفاءها.

ضمت شعرها المفروق بدقة في وسط رأسها ثم سرحته بشكل هالة فضية. وخرجت عن المألوف اذ اثبتت زهرة مغنولية جميلة في طرف شعرها قرب وجهها... اذا كانت العيون تنظر اليها، فانها لن تفطن لنظراتها التي تركّز على محور وجودها. فالحفلة حفلتها وهي غارقة في بحر الهوى الذي خفق به فؤادها وكأنه زهرة تفتحت بسرعة واصبح من الصعب احتواؤها في هذا الاناء الضيق.

بدا لايسي المندفع بجانب كوين شخصاً مألوفاً ومريحاً. كم سيدهش ويغضب حين يعلم انها تحب كوين ولا تستطيع ان تلقي نظرة واحدة عليه حتى لا تفضح حركاتها ووجهة عينيها. على انها خزنت في ذاكرتها كل ما يتعلق بهيئته، من ابتسامته وملامحه القاتمة وهزة رأسه وانفه الاشم وطريقته في التعبير عن نفسه بحركة يديه التي تشق الهواء. وأول ما لاحظته عنه نحول يديه وقوتهما وطول اصابعهما. انه غاية في الجاذبية، وما اصعب ان يقلّد المرء ابتسامته البراقة التي لم توجه نحوها الليلة.

اذن، من الطبيعي الا تتمكّن أو ترغب بالنظر اليه. الا انها نظرت الى كل ما حولها من نساء ارتدين اجمل اثوابهن، والى عدد هائل من ازهار الحديقة المنثورة على ملابس الرجال الرسمية. وتعالى صوت الموسيقى ورنين الضحكات وضجيج الاحاديث. واكتشفت ان الجميع عاملوها بعد تعريفها على الضيوف لا كضيف جديد مرحب به، بل كفرد من المجموعة. وتملكت هذه المودة والدماثة قلبها. فتفتحت مثل زهرة الكليوم أو زهرة الريح.

ولم يشك أحد بأن حفلة كاترين الصغيرة بلغت قمة النجاح. وعرفتها الخالة ايلينور بشيء من ثبات كوين على انها (كاترين). فغابت ستورم الليلة، فيما تجلت كاترين على أفضل ما يكون التجلي. واذا كانت الخالة ايلينور قد حدّقت الى حجر الاويال المتدلي من عنقها طويلا وبتمعن، فان احداً سواها لم يفعل، بل اكتفى الجميع بالقول انه رائع. وحسبوه من ممتلكاتها الخاصة. والحقيقة انها امتلكت او ارتدت حجر اويال للمرة الاولى.

واختلفت هيلنا التي رقصت ودارت حول الشرفة عن الجميع في امرين. اولهما انها لم تتأثر بانتصار كاترين الساحق. وثانيهما انها فتنت الكثيرين بحلتها الحمراء الغامقة التي بدت سوداء في وهج الاضواء الخفيفة. وقد فصلت تفصيلا انيقاً بحيث تسمح باظهار سمرتها الساحرة علاوة على انسياب شعرها الذي تمايل كلما تحركت، وتراجع الى الوراء ليبرز حلقاً كبيراً صنع من الكريستال.

اما شقيقتها دبرا، التي حافظت على مظهرها الانيق بارتدائها تنورة فضفاضة صبغ اعلاها بلون الشوكولا، فبدت جميلة قليلة الحركة. والواقع انها كانت منهكة من العمل والقلق طوال النهار والليل على صحة والدها. ورق لايسي لها ولازمها بين الفينة والفينة بينما شده ميله الطبيعي الى ملاحقة زهرة الربيع ورمز الشباب والاندفاع والعفوية، كاترين. ووجد نفسه ذات مرة يهتف باسمها مما جعل كوين يقطب جبينه. وازعجه كثيراً مشهد دبرا المرهقة التي صفحت عن بحثه الدائم عن فتيات اخريات. ولم يخف لايسي استعداده الدائم للتنقل بين الفتيات اللواتي يبهرنه سريعاً محاولاً ان يلفت انظارهن كأي رجل يحتل المرتبة الثانية في هرم المسؤولية.

واعادت الحياة العصرية وحقيقة الواقع المريرة دبرا الى ذاتها. فاعمالها تنم عن كونها امرأة رائعة لا تشك في ان الجميع سيحبونها متى بلغت الأربعين. لكن ما يهمها الآن من الدنيا هو استعادة والدها لصحته، الامر الذي تضحي من اجله حتى بلايسي. هكذا فكرت وهي تبكي.

وتنبه لايسي من احلامه الماكرة للدموع المترقرقة في عيني رفيقته بعد ان نسيها كلياً. فحزن، واخذها معانقاً. فالتمعت عيناها لطفاً وحنواً جعل لايسي الطائش يقرر ان يزيد اهتمامه بها. ثم قال بنبرة صعب معها معرفة ما اذا كان يجاملها ام لا:

- انك رائعة يا دبرا.

ردت وهي تقسو في تأنيب نفسها:

- اني رائعة مع الآخرين. ولست مثل كاترين. انها جميلة، اليس

كذلك؟ انها اشبه بشجرة السنط.

وافقها لايسي بصراحة متناهية وشدد على رأيه:

- انها تنير الشرفة. وهي اجمل فتاة رأيتها او يحتمل ان اراها. يا لها من حلم رائع! ولكن، لا تقللي من قدرك وجاذبيتك يا دبرا. فانت فتاة أصيلة وحقيقية. والأهم من كل ذلك انك تفهميني.

- اعتقد ذلك..

قالت دبرا ذلك وهي تتمنى ان تشبه شجرة السنط. فهي لا تتغير ولا تتبدل حتى مع الحمرة التي سيطرت على وجهها الاسمر الصغير فجعلته احمر ورديا بلون الشمس الغاربة. اما لايسي، فظهر انه فقد شيئاً من طيشه وجرأته وبدا اشد لطفاً واعمق تفكيراً. ما اشبه تصرفه بانهمار المطر على ارض الصحراء القاحلة! واشرقت دبرا نضارة للحظة مع انها كانت تدرك ان ذلك ليس سوى موقف سريع التغير. ولكنها تاقت الى لفتة حنان من لايسي في هذه الليلة. وكلّف لايسي، الذي لم يعرف كيف يواسي الآخرين، نفسه عناء افهامها انه يهتم بها.

وترامت من ارجاء الردهة الفسيحة ضحكات هيلنا، فخاطب لايسي شقيقتها:

- انها متوحشة، اليس كذلك؟

والواقع ان هيلنا تمتعت بمظهر يدل على بعض التمدن يؤكده ثوبها، ورأسها المرفوع ليتأمل وجه مضيفها. كان بينهما صلة سرية شخصية حميمة تنتفي معها حاجتهما الى الكلام. وفتحت شفتيها الحمراوين، فتلألأت اسنانها البيضاء. ولاحظ لايسي بلطف نادر:

- تكاد هيلنا تلتهم كوين. لكنك يا دبرا الفتاة الوحيدة التي تشد كوين وتحظى باهتمامه. وهذا ما يجعلني احبك على ما اظن. وانا اعرف بماذا تفكرين انت ووالدك. لكنك في الحقيقة لا تكترثين الا لي، اليس كذلك؟

اجابت دبرا وهي تتنفس بصعوبة:

- اجل.

لكنها لم تجد داعياً للاهتمام. فلايسي عاد يحدق الى ما حوله متجاهلا وجودها، ثم قال بوقاحة:

- فظيع! طالما اخبرت نفسي وطمأنتها أنني وكوين متساويان مبدئياً. ولكن، انظري اليه كيف يرمي بكل مبادىء المساواة الى الهاوية. ويبدو لي انه ربما يطمس كل من حوله. وافظع ما في الامر انه لا ينتبه الى هذه الحقيقة التي يمارسها دون قصده. يتكلم بقسوة وخطورة. على انه يثير جميع النساء. وهذا ليس عدلا على الاطلاق. تأملي هيلنا، التي لا يمكن لأحد ان يتجاهلها... والحقيقة انني لا اتصور كيف تكونين شقيقتها وهي لا تشبه اياً من والديك. انها اشبه بانثى الثعلب. لقد طاردت كوين سنوات عديدة. على ان احداً لا يدري اذا كان يفكر بها في غير المناسبات النادرة كالليلة مثلا. فكوين منشغل دائماً بمندلا اما انا، فلم اشغل نفسي طوال الوقت بالسعي لاثبت جدارتي كابن ثان ممتاز، الامر الذي لا ارغب فيه. فانا لا اهتم بالامر على الاطلاق... ما اعظم المشاكل التي تصنعها بانفسنا. فكل ما حصلت عليه من والديّ هو حب صادق والتزام مطلق. وكذلك الامر بالنسبة الى كوين. لكني في الحقيقة لم الق منهما الا تصوراً بانني دائم الخطأ. وطالما تساءلا: «ماذا سيصنع الطفل بنا الآن؟» وخيل الي عندما كنا اطفالا ان كوين يسمو علي ويتفوق. واني احب شقيقي حقاً كما تعلمين.

واستدار نحو دبرا بشراسة وكأنها لوحت بالاعتراض. غير انها قالت بلطف وقد الفت تصرفات لايسي واقواله:

- اني اعلم انك تحبه. وكذلك الامر بالنسبة الى كوين والى كل من تعرف على مسافة الف ميل منك. على ان كوين يعاملك بلطف وتراخ.

وذهل وعلت الحمرة وجهه اذ فوجىء بان تقول له هذا الكلام وان تنتقده وتنتقد شقيقه، وصاح:

- دبرا!!

ردت وهي متمسكة بموقفها بالرغم من الضيق الظاهر في عينيه:

- انني لا أبدو لطيفة تجاهك. لكنك قلت انني امرأة حقيقية بل

واقعية، واذا كنت رجلا حقيقياً وواقعياً عليك ان تتقبل هذه الحقيقة.

انتصب واقفاً وقد بدا متأثراً اكثر مما توقعت، اذ لم يتصور ان تواجهه دبرا الصديقة القديمة التي عبدته سنين طوال بالحقيقة. وقال متجنباً الصدام معها:

- وهل يستطيع اي شخص ان يتقبلها؟

ثم اضاف:

- سأحضر لك كوباً من العصير.

ووقف بقامته الطويلة النحيلة وشعره البني الفاتح وعينيه الزرقاوين. فتساءلت دبرا قبل ان تقول برقة اذا لم تكن قد آذته:

- لا تسرع. فانا لن اهرب.

لقد تعودت ان تخفي مشاعرها الفعلية في المناسبات والأماكن العامة وها قد نجحت في مسعاها.

ولشد ما دهش لايسي واستاء بعد ذلك عندما لم يتمكن من الدنو من كاترين واصطحابها هي ودبرا الى طاولة العشاء. واحاط بكاترين ابناء جوك فوسيت العمالقة الأربعة المغرورون وذوو الطباع الحادّة من توبي البالغ عشرين عاماً الى جون البالغ ثماني وعشرين سنة. ولم يظهر اي منهم استعداده للتزحزح ولو خطوة لأخيه او لأحد افراد اسرة مكميلان الكثيرين. وقد رأى لايسي نتيجة مزاجه المتهكم وغير المألوف ان لعل في ذلك خيراً. ورجع الى حيث جلست دبرا على الاريكة وقد سطع النور على شعرها البني المجعد. واشعرته الليلة بانها اشبه بقطة صامتة، الامر الذي جعله يدرك انه لم يكن في بالها. ماذا دهى دبرا في أي حال؟ لقد اعتادت ان تظهر حيوية أعظم من حيويتها الليلة. اما هيلنا، فتصرفت كالبهلوان في رقصها على الشرفة.

التفّ الجميع بقابلية زائدة حول العشاء. فهو شهي لغناه بالمواد المستوردة من اديلايد ومجموعات القرنفل الطويل والازهار الشائكة. وصعب عليهم تقرير ماذا يريدون لوفرة الاصناف التي توضع في طبق واحد. وعاد لايسي مستغرباً ان تتمكن ستورم من تناول لقمة واحدة بينما

تحدث اليها احد ابناء فوسيت دون انقطاع دافعاً اياها ان تجيبه وقرر لايسي ان يصطحبه الى الخارج ويوجه اليه بعض اللكمات متخلياً عن كرم المناسبة وفرح العيد. ورضي رضى تاماً عن الطبق المليء باصناف الطعام من دجاج محمر ولوز، وكأس ملئت بسلطة غريبة مؤلفة من اجزاء السرطان والقريدس والمحار الصخري المستخرج من اراضي سدني علاوة على كتل من لحم سمك السلمون والفطر، الذي احبه لايسي وشرحة سميكة من لحم عجل صغير ربي في مندلا، وبعض المعجنات المحشوة بالجبن وشرائح شهية من جراد البحر وبعض حبات الزيتون الاسود. وطمأنها بقوله:

- هذا كاف كمقبل.

وازالت رائحة الطبق الحار الشهية المنعشة رغبته باخراج فوسيت من القاعة. وادرك ان بامكانه الاعتماد على كاترين في التخلص منه. واوما برأسه الى جوزيف النادل المرتدي معطفاً ابيض وامره باحضار بعض الشراب المثلج له. وازعجه صمت دبرا في جو الحفلة الصاخب. فانحنى على صحنها وأعمل الشوكة والسكين تقطيعاً بالدجاج المحمر الموضوع فيه كوسيلة وحيدة لاخراجها عن صمتها.

ادار جون فوسيت برأسه قبيل منتصف الليل مستاء اذ ربت احدهم على كتفه مستأذناً:

- هل تسمح؟

اجاب قبل ان يبتعد موجهاً حديثه الى كوين ثم الى كاترين:

- طبعاً يا كوين. ان الحفلة رائعة وكايت هي بهجة العام الجديد. لا تنسي آخر رقصة يا كايت. هل تسمعين؟

وهمس كوين:

- حسناً. اما انا يا كايت الساحرة!

لقد هربت منه طوال السهرة. وعليها الآن ان تتوقف عن الهرب.

فهزت رأسها ورفعت بصرها اليه مبتسمة:

- هو ينادي بهذا الاسم. ولا يزعجني في ذلك شيء.

- اما انا، فانزعج. وهو اسم غير ملائم لأنك لست لطيفة وكريمة الخلق الى هذا الحد.

عندئذ سألته متحدية:

- هل فكرت بالرقص؟

- انني مصمم عليه.

وادارها مبتعداً بها عن مكانها دون مقدمات فمشت كأنها في النوم دون ارادة او تفكير بوجهة سيرها. وظهر الغضب على محياه. فاحست بالنشوة برهة وكأنها دخلت النار بعد عاصفة ثلجية. ولم تخفف منها رعشة الشوق التي احس كوين بها، فحول بصره اليها ليرى ان النار السارية في عروقها ودمها قد اضفت جمالا غريباً على قسماتها، جعلها تتفوق على الآخرين وتختلف عنهم فاصر ان يعرف السبب:

- ماذا جرى؟ من الحري بك ان تخبريني خصوصاً وانك تجنبت لقائي او التحدث اليَّ طوال السهرة.

- هل يسعني اطلاعك على الامر يا كوين؟ اظنني اكثرت من الرقص والشراب.

واضاف بجفاء:

- وجرعة من الاعجاب والتقدير. هل انت واثقة انك لم تفرحي بها؟

- كلا، على الاطلاق. واذا تمهلت، فانني سأشرحُ الأمر لك.

- تفضلي.

ولاحظت كل حركاته وسكناته وملامحه. فكادت تلمس وجنته. وفاجأها التباين الشديد بين سمرة بشرته الحادة وبياض قميصه الناصع. وخاطبته بلهجة حالمة:

- لبضع سنوات خلت، لم تكن اية امرأة تحترم نفسها لتقول ما سأقوله الآن: اني مهتمة بك اكثر مما ينبغي.

فصاح بلهجة المحذّر كمن بلغه ادراك حقيقة مفاجئة:

- كاترين!

- لكنك انت الذي سألتني.

وكان رده:

- كل النساء عرضة للافكار والاحلام الخيالية.

- هل تعني انها مجرد احلام؟

أوضح مبتسماً:

- وطالبات المدارس خاصة.

فصححت قوله وقد آلمتها عواطفها الناضجة:

- لست طالبة في مدرسة.

- صحيح انك لست طالبة في مدرسة، لكنك تقاسين ازمة عاطفية، أوليس هذا ما قلته لي؟

- ما اغرب الا يؤخذ كلامي على محمل الجد!

- هل تريدينني ان افعل؟

ورفعت ناظريها اليه، فانعكس الشعاع في عينيها:

- لا تعاملني على هذا النحو يا كرين. فالوقوع في الحب اشبه بالاصابة بانهيار عصبي.

- لعلني احسبه انهياراً في التفكير.

راقبها بسخرية ضئيلة وعينين سوداوين لامعتين. اما هي، فقلدته بمكر وقد نبض كل عرق من عروقها بحب عظيم وشوق شديد اليه. الا ان شعوراً بالضياع واستحالة تحقيق هدفها راودها.

وخاطبته بيأس علماً بانها حاولت ان تبدو باردة الاعصاب وهي تسعى الى معالجة الوضع:

- اتصور انه كلما تحدثنا في الأمر، كلما سهل علي التغلب عليه. ربما اقنعت نفسي بالتخلص منه. هل فهمت قصدي؟

ودفعها بمهارة بالغة الى طرف الشرفة المظلّل باغصان الكرمة. وقال:

- اني اربط كل مشاعرك تجاهي وافتتانك بي بالفوضى. كما اني لا افهم قصدك.

- فعلاً؟

وتفاقم غضبها وهياجها بصورة لا تصدق اذ ازعجتها الظلمة وشذا

الياسمين ومظهره الكئيب والسخرية القاسية البارزة في عينيه وأمر آخر لم تستطع ان تجد له اسماً. وقالت:

- لم افكر اني قد ازعجك مهما فعلت.

- ليس هذا مهماً فانت التي دعوت عاطفتك افتتاناً واهتماماً لا أنا.

- ماذا تسميها اذن؟ فوضى؟

- اذا كانت حقيقة الأمر كما تبدو لي الآن، فاني لا اشك البتة بانك تتخبطين في شيء من الفوضى. اعلمي ان قبيلة جوك فوسيت على شفة خوض حرب اهلية. اما لايسي، فمطرق وغارق في التفكير الى حدّ انني لم اعرفه. واخبرك ايضاً بانني تلقيت دعوات لزيارة اماكن مختلفة السنة اكثر من اي وقت مضى، لا من اجلي انا، بل لاصطحب كاترين معي.

- على انك لم تخطط لابقائي مدة أطول في مندلا.

تلفظت بهذه الكلمات بالرغم من انها تعلّقت بالأمل. ولم تتحرك الا قليلا نظراً الى جموده النسبي. صحيح انها راقصت عدداً من الشبان الوسيمي الطلعة والجذّابين، لكن لا بد من التمتع بالرقص مع مكميلان المنضبط ذو الابتسامة الساحرة التي تتوسط وجهه البهي القسمات الهادىء وطلب اليها مشدداً:

- لا تتصرفي كالمجانين. دعينا نستمتع بهذه الرقصة. فأنا نادراً ما احصل على فرصة ملائمة للاسترخاء. ولم يبح لي احد باكثر مما سررت به اليّ يا كاترين في الأسابيع القليلة الماضية. وواضح انك لا تستسيغين الهموم والمشاكل اليومية. لكن، علي الآن ان اجد وسيلة لكبح ولهك.

- ما اروع ما تفعله! لقد حذرتك سلفاً لعلمي اني استطيع الاعتماد عليك في إثبات سخف تفكيري.

وباتت على محياها مشاعر يأس كثيرة وحماسة مطلقة. وهمست بحزن:

- افكر احياناً انني تعلمت في الوقت القصير الذي قضيته في مندلا اكثر مما تعلمت طوال حياتي.

- اجل. انني ارى هذا التغير الواضح فيك. كم مضى على اهتمامك بي؟

- اسبوع ربما. منذ انقذتني من الثور، وعانقتني دون مقاومة مني.
قهقه فأضاف بذلك اهانة جديدة الى مشاعرها. وعقّبت:
- لا يخطر ببالك انها هي المرة الاولى.
- وكذلك أنا.
قالت بالحاح وهي تتساءل:
- لا بد ان تتزوج يا مكميلان. فجميعنا نتزوج في آخر الأمر.
لم تنم عيناه الا عن سخرية غريبة. فادارت رأسها مندهشة:
- آه، هذه هي هيلنا. انني اراها بين حين وآخر تتفحص... اخبرني، اين تقع هذه المرأة في تفكيرك؟
رد باستخفاف:
- لديك بعض الافكار الخاطئة حول هيلنا.
- لا اعتقد ذلك. لكنك لست مستعداً لتعتبرني جدية، اليس كذلك؟
اوضح وقد ستر عينيه. الا انها فطنت الى نبرة المرح في صوته:
- ربما قلبت عالمي رأساً على عقب اذا انا فعلت. واهمّ ما في الأمر الآن هو احتفاظي بهدوئي واعصابي الباردة.
- انك تهزأ بي.
واحست المرح في صوته عندما قال:
- أبداً.
فردت عليه بلهجة حزينة:
- هذا لا يهم في أي حال. غير انك لا تمن علي بابتسامتك المشرقة العذبة الا في ما ندر.
- ولماذا افعل وانت لم تبلغي التاسعة عشرة بعد؟
وحاولت ان تفحص عينيه بعينيها، التي زادت زرقتهما حتى حاكت الزمرد، وامتلأت حنوا وشفافية. وتمنت لو قاربته سناً، وحاكت هيلنا تعقيداً ورقياً، لغدت اذن امرأة فاتنة تختلف عن كاترين الحسناء السخيفة التي تخرجت من المدرسة حديثاً وما زالت تعيش في عالم الخيال. اخذت تفكر انها ستكبر سريعاً. ثم سألت نفسها لماذا تشغل بالها بمسألة السن

والزمن المعقدة. وقالت له:
- لماذا يهمك السن؟
- انه يؤثر على تنظيم خططنا يا كاترين.
- وما هي خططك؟ اني لا اعرف احداً يقع في الحب بسرعة.
- ربما لن يستغرق التخلص من الحب وقتاً طويلاً أيضاً. هل فكرت بذلك يا زهرة الريح؟
- لعل السحر ينفع اذا عانقتني ثانية.
- سوف ابحث عن مكان آخر. فانت لا تريدين ان اخوض نزالا من اجلك؟
- ما هذا الجواب الغريب؟
همس وهو يسخر من نفسه:
- الله يعلم. ربما رغبت في الحصول عليك يا كاترين. لكنني احضرتك الى مندلا لاعتني بك اولاً. ولا يزال هذا هدفي.
قالت مبدية بعض الدهشة وبلهجة تطابق لهجة والدتها:
- قد يستغل الرجال الأخرون مثل هذا الأمر.
صاح بايجاز:
- لست احد اولئك الرجال الآخرين.
- لا تغضب.
- اني غاضب. وساغضب اكثر.
- ارجوك يا كوين الا تفسد عليّ حفلتي. وارجو المعذرة اذا كنت قد اسأت اليك.
ووجدت نفسها فجأة ترتجف، فهي ليست كفوءاً او نداً له في شيء. وها هو جسمها ورأسها المصاب بالدوار يجبرانها على دفع الثمن. وسوف تفقد السيطرة على نفسها في لحظة، وتجهش بالبكاء. انها تعاني من شدة عاطفتها وانتظارها الطويل لمكميلان. ستتهم بانها حاولت اغواءه. الأمر الذي فعلته حقاً. لكن ذلك لم ينفع لعدم توفر الشروط الملائمة لذلك. على انها تشوقت اليه. ماذا حدث لتكون ضحية

www.elromancia.com

احاسيسها المتنبهة؟

ثم اغمضت عينيها واطلقت تنهيدة حارة وكأنها تودّع احلامها في بداية رحلتها الطويلة في القطار السريع. لن يلحق بها، كما انها لن تنساه قبل سنين من الآن ثم كلمها:

- افتحي عينيك يا كاترين.

وحاولت جاهدة ان تتجاهل نداءه. الا انها سمعت المرح الموجع.

- انني هنا في الظلمة، في موطني. والى هذا، فانا انساك عندما اغمض عيني. واعلم انك طالما تمنيت الا يحدث مثل هذا الامر يوماً.

وسمح لنفسه باطلاق ضحكة منخفضة بينما ركز عينيه على وجهها الحالم والحزين وقال لها:

- هل تستمتعين بلعب دور بطلة احدى الروايات يا كاترين؟ كاترين!

كرر اسمها مرتين، ففتحت عينيها بسرعة لترى الضوء ينعكس على ثوبها بشعاع ذهبي جعلها تبدو مثل وردة صفراء. وقالت له بتهذيب شديد:

- ارجو المعذرة. فلا بد انني شردت بافكاري فيما لا اريد ان اعاني من شعوري نحوك.

علّق بلطف:

- لا تفوهي بكلمة اخرى!

وعاشت في عالم خادع من الأمل برهة، ورفعت رأسها لتتأمله وقد حبست انفاسها امام نظرته وقالت دون تفكير:

- من الواضح ان شعورك مختلف.

رد مقطباً جبينه وقد ضاقت عيناه:

- لا زلت اتمتع بشيء من الاحساس والذوق يا كاترين.

اجابت برعشة ألفتها:

- يا للجواب المفحم!

اوضح بينما ازداد البريق في عينيه:

- يتمتع الشباب بالمرونة.

ابتعدت عنه حابسة انفاسها ومتلألئة في وهج الانوار مثل وردة صفراء في الخميلة.

- اما انت، فلن تتخلى عني الى الابد.

ثم اصغت الى جوابه القصير بتوتر وانفعال شديدين:

- انني اعلم.

www.elromancia.com

٧ـ ظهر لها شبح إيما، فاستنجدت مستغيثة بكوين. جاء فوجدها شاحبة كبحيرة حزن. أسكن روعها، وفي الصباح، ذهبا معاً الى منطقة التلال، حيث حاولت النفاذ الى عالمه المليء بالقسوة... والحب!

لم تبلغ السهرة ذروتها الا مع لايسي الذي روى على مسمعها حادثة إيما وجعل منها قصة بطولة.

- تشبهك كثيراً إنها تذكرني بك.

سألته كاترين بوقاحة فورية وقد ازعجتها ضحكة هيلنا، ملاك مكميلان الحارس والموسوسة في رأسه الأسود:

- ماذا؟

افهمها لايسي وقد شعر بالغيرة بدوره:

- إيما، إيما مكميلان يا فتاتي. انها الشبح المقيم عندنا.

- انك تمزح!

رد بلطف وقد اطمأن الى اهتمامها المطلق:

- كلا. وهناك رسم لها في الرواق الطويل.

- اي رسم تقصد؟ لقد القيت نظرة مطولة على الرواق ومحتوياته.

- رسم لأصغر السيدات سناً واشدهن شقرة. فايما لم تبلغ سوى تسعة عشرة عاماً حين اغرقت نفسها. لقد ساوتك في السن أو تجاوزتك بقليل.

- ولكن، لماذا لم تخبرني قبل الآن؟ فقد حسبت الشبح شبح راع.

قال لايسي على نحو غامض:

- هناك شبح لراع تزوج امرأة من السكان الاصليين. فقتلوه حسب طقس الكادايتشا المرعب.

- يا لك من كذاب مهول يا لايسي!

- بالعكس. فالرجل قد اختفى ولم يترك اثراً. ولا تحاولي التعرض للكادايتشا يا ابنة المدن الحسناء لأنها كانت ولا زالت وسيلة ارهاب نفسي وأداة قتل حقيقية عند افراد القبائل. وهي ضرب من السحر السري فيه كلمات مبهمة وطقوس غامضة وأغان ترافق الانسان حتى الموت. وهناك آلاف الطرق لقتل الفرد. ولا يتمتع ابناء جنسنا بالحصانة ضد تأثير العرّاف أو الساحر بعد اصدار الأمر بالموت. ولم نتمكن من استعادة غوردون الراعي. اسألي كوين.

- سأفعل لأنه لم يجرب اسماعي قصص الارواح في الحفلة.

- هل تريدين الاستماع ام لا؟

ردت بسخرية وهي تبتسم:

- ستحدث معجزة اذا استطعت تجنب الأمر.

قال لايسي باندفاع:

- لا تقولي بانك لم تلاحظي شيئاً غريباً في الخزانة الموضوعة في

www.elmanciat.com

حجرة نومك. فهي خزانة عرس إيما، التي لم تنعم بها طويلا.

- عظيم! لعل القصة جديرة بالاستماع.

- من الشائع ان الفتيات ذوات العيون الخضراء الواسعة الملتمعة شديدات الحساسية لتأثير الارواح.

- وهل تعتقد فعلا ان الخزانة مسكونة؟

قال لايسي بشيء من التندر:

- ليس في النهار. ولو كنت مكانك لطلبت اخراجها من غرفتي لكني محظوظ مثل الرجل الآخر. وذات مرة وقع بادي رايلي العجوز قرب المستنقعات. ولما وجدناه في اليوم التالي، كان على شفة الموت والجنون. وكثيراً ما تكلم بحماقة، وهذا بالتأكيد لأنه لمح إيما تتحرك بين الاشجار. واقسم انه خاف خوفاً شديداً وتعلق بكوين، وكوين جبل من العزم والقوة وله كل الايمان بايما. والارواح موجودة منذ الأزل يا حبيبتي، ولا زالت موجودة، وحبيبتنا ايما معها. اسألي ايلينور التي تؤمن بايما. ولذلك لا تشير اليها ابداً. فلنذهب الى فوق ونلقي نظرة على الرسم، فلعله يوحي لنا بشيء.

اوضحت كاترين ببعض الحنق:

- انها لا تشبهني في شيء.

- لا أوافق على رأيك. فكلاكما شقراوان نحيلتان. ولو لم اتفحصك عن كثب، لرأيت فيك شبهاً كبيراً لشخص ميت.

اوضحت كاترين بدهشة وعدم اقتناع:

- اما أنا، فلا أؤمن بوجود الارواح والاشباح. وهل رأيتها أنت؟

- كلا. لكنني احسست شيئاً مغايراً للمألوف بعض الاحيان قرب البرك العميقة. لنلقي نظرة اخرى عليها بينما يستمتع الجميع بالموسيقى والرقص.

لم يكن بوسع كاترين رفض الدعوة. وأشعل لايسي النور الذي

ملأ الشقوق في الرسم المعلق على الجدار فهمست كاترين:

- اراها وديعة.

وسألها لايسي مصعوقاً:

- ماذا تهمسين؟

- الله يعلم. أحس بالقشعريرة تسري في بدني علماً بانني التهبت من الحر في الطبقة السفلى.

قال لايسي مسروراً:

- القي اللوم علي. فالحقيقة ان شعوراً مضحكاً يخالجني.

وشدها نحوه قائلا:

- عانقيني قبل ان اموت شوقاً اليك.

صاحت كاترين وهي تحدّق الى وجه ايما اللطيف الجميل:

- كفاك سخفاً.

كان وجهها ملائكياً لا يوحي بأنها اغرقت نفسها في المستنقع. رغم ذلك تبقى قصتها مأساة حقيقية. أمسكت شعرها حزناً على ضياع حياة ايما. ما افظع الأمر! نظرت الى لايسي وخاطبته بفتور محولة اليه بعض اهتمامها:

- كف عن هذا يا لايسي.

- لن اكف. فهذه المرة الاولى التي اشعر بها بقوتي الليلة. انك جميلة ورائعة يا ستورم الحبيبة. لا تبالي بهذه القصة السخيفة. فقد كنت امزح معك.

ثم سألته وهي تضغط بيدها على صدره وتدفعه بعيداً:

- هل الخزانة هدية عرس ايما؟ اظنها كذلك. لو انك تحس بما احس لا تقل انني وقعت ضحية اقدم خدعة في العالم.

ابتسم أمام عجزها الجسدي:

- تكمن مشكلتك في كونك تثقين بسرعة وبصورة عمياء وانك تقتنعين بقصص الارواح. ارجو الا تعارضي قولي.

هزئت منه برقة:

- الا ترى كم انا خائفة؟ ولكن، ليس منك يا لايسي مكميلان!
رد متمهلا وقد اشتد البريق في عينيه الزرقاوين:
- عليك ان تتعلمي الأمور بطريقة اخرى. لا بد لفتاة لها حسنك ان تتزوج باسرع ما يمكن.
سألته مندهشة:
- تتزوجك؟
- لدي المال. وبامكاننا تأسيس منزلنا.
ردت بلهجة دافئة رقيقة:
- تزوج من شئت، الا انا. لكنني اشكرك على عرضك وتلطفك. اجعلني جزءاً من ماضيك. انني نازلة الى الطبقة السفلى.
وخاطبها صوت حاسم من ورائها:
- اعذراني على ملاحظتي، كان يجب الا تصعدي الى هنا. ثم ماذا تفعلان في أية حال؟
رد لايسي بعناد:
- اننا نتأمل صورة ايما.
عقب شقيقه ببطء:
- يا للفكرة السخيفة! انصرف. كاترين، هل اوحت لك الصورة بشيء؟
ردت ببعض الشرود:
- لست أدري ماذا تقصد.
بدا كوين رجلا غريباً ومستبداً واقترح عليها قائلا:
- تأملي نفسك في المرآة. لقد فقدت كثيراً من لونك واصبحت عيناك اشبه ببحيرة حزن... لعلك ملأت رأسها بالاوهام يا لايسي.
- كلا، بالطبع.
- حسناً. فلنهبط السلم، اذن.
ظلت عينا كاترين مسمرتان على وجه كوين، الذي احدث صوتاً

غريباً قبل ان ينحني ويضغط على ذراعها مطمئناً:
- لا داعي لقلقي عليك يا كاترين، ولا لقلقك. فانت في مأمن في مندلا اكثر مما لو كنت في أي مكان آخر من العالم.
انطلق لايسي غاضباً. ثم استدار عندما بلغ اسفل السلم لينظر اليهما مجدداً. وبدت ستورم مسمّرة في مكانها وقد طغا بريق عينيها الخضراوين الواسعتين على وجهها المخطوف. وبقربها كوين يحدق اليها بعينيه السوداوين اللتين ضاقتا. وفي أقل من ثانية التمعت فكرة جديدة في ذهن لايسي. فهبط السلم مسرعاً الى حيث انتظرته دبرا.
ولما انتهت الحفلة اخيراً، وخلد الجميع للراحة في ما تبقى من ساعات الليل، وجدت كاترين نفسها لفرط دهشتها تغرق في نوم عميق خال من الاحلام بالرغم من الدوار الذي اصابها لمعرض الاشكال والالوان المتغيرة الذي رأته. وما هي الا ثوان من التحديق الى الستائر التي لفت السرير، حتى غلبها النوم... ولم تر احلاماً تعذبها، او تحس بشوق.
ترى، ما الذي أيقظها؟ أهي قرقعة في خزانة العرس، ام «شبح» نحيل، ام صرخة انتحاب؟ وكل ما ادركته هو انها استيقظت وقد سرت في جسمها قشعريرة بينما حاول تفكيرها تحليل امر بدا غامضاً ولم تستطع شرحه. ليس ثمة شيء في العالم يطمئنها الا ضوء النهار، فلقد طغت على تفكيرها موجة خوف لم تعرف له مثيلا من قبل.
وتسلّل ضوء القمر الى الغرفة هادئاً وخانقاً مع اجتياح الخوف لاعصابها. فجمدت فروة رأسها، واطلقت صيحة استغاثة زادها ايمانها قوّة. لقد صعقت وسيطر عليها السحر فيما حاولت عيناها الواسعتان اللتان اثقلت جفونها بالنعاس اختراق حجب الظلمة الدامسة. وتناهت الى انفها رائحة ورقة بورونيا ذابلة.
وتراءى لها انها شاهدت شيئاً او جسماً شاحباً يتحرك، وكان الشخص بلا ملامح له ظل كفن فارغ. كم وقف في مكانه يراقبها بهدوء؟ وارتجفت ارتجافاً عنيفاً فيما خفق قلبها مثل طبل الفرق

العسكرية. فقذفت بنفسها من السرير بتشنج، فعلقت بالستارة العليا، ورمت البطانية الرقيقة مع قماش الحرير الذي يشدها.

ونادت باعلى صوتها «كوين!» مرة تلو الأخرى بتهدج واضطراب، شابها تهدّج البجعة التي تغني أغنيتها الأخيرة. واجتازت الممر عدواً نتيجة الخوف. وسرعان ما انتقلت في نهايته الى الصدمة الكبرى. لم يكن بامكانها تصور كل هذه الأحداث. سيجدونها ميتة مع الصباح. اطلقت صرختين متتاليتين مخنوقتين «كوين! كوين!» في محاولة أخيرة للتغلب على خوف لا يدركهُ التصوّر.

واشعلت الانوار، وسمعت صوتاً يناديها بقسوة تحاكي لذع السياط ورأت ذراعين فولاذيين ويدين قويتين تنتشلها من مأزقها، وتلقيها بقوة على السرير.

- بحق السماء يا كاترين.

واتضح انه اثير فوق حدود التصور، الا انه هدّأ روعها. اختفت اناتها وهمست بقلب خافق وقد استلقت على ظهرها:

- كوين!

وسمعت صوتاً آخر أفعم بالقلق والخوف، هو صوت الخالة ايلينور يقول:

- قف مكانك لآتيك ببعض الحليب الساخن أو اي شيء آخر.

وصاحت كاترين:

- هنئوني على خلاصي. فقد كانت إيما تسعى في اثري.

واحدثت ايلينور طقطقة غريبة بلسانها، ثم اختفت بينما صورت الاشياء في عقلها بوضوح. فكاترين اختارت الغرفة بنفسها، وسعدت بوجودها هناك. ولم تكن الجياد البرية لتجر ايلينور الى تلك الحجرة في الليل طبعاً. انها تعاني خوفاً بسيطاً ورعشة في اعصابها الحساسة. وشدّت ايلينور رداءها الحريري حولها قبل ان تنسل هابطة درجات السلم شاكرة الله على ان جميع ضيوفهم اقاموا في الجناح الغربي. صحيح انها لم تسمع صيحات الفتاة لما اصابها من صمم

بسيط مؤخراً، غير ان كوين سمعها لأنه شديد الحساسية، ولأن الفتاة رددت اسمه وكأنه منقذها الوحيد.

اما كوين، فبدا اي شيء الا المنقذ الموعود. وظهر عليه استياء بالغ، التمعت عيناه السوداوان، وتراقص السخط على سمائه المسمرة وتشنجت عضلة قرب فمه بينما ستر رداء القاه على نفسه كيفما اتفق. ورددت كاترين مصرة على تبرير نفسها:

- طاردتني.

رد متوتراً:

- من الواضح ان احداً طاردك. لكن اي شبح او روح يستحق ان يحمل هذا اللقب، لا يظهر في مثل هذه الساعة من الصباح. انها الرابعة فجراً.

- سواء كان الوقت وقت اجتماع الارواح وعودتها الى مقرها ام لا، فانا سعيدة لقدومك يا كوين. يا لك من مرفأ أمين ارسي فيه شراعي.

حدثته برقة وعجلة وقد تخبطت في قميص نومها المجعد وماثلت البنات الصغيرات حشمة وحياء بينما انسدل شعرها البراق على وجهها الشديد الحمرة وعينيها اللتين ازدادتا اتساعاً واخضراراً. وبدا واضحاً انها لم تثر نزواته بل ان قسماته اتسمت بعصبية الرجال وشراستهم.

- هل كان عليك حقاً ان تطرحي نفسك على الارض على هذا النحو؟

- تملكني الهلع. الم تشعر بالخوف يوماً يا كوين؟ لا ترد علي. فانا، يا للغرابة، اعرف الجواب.

- لا بد انك هذيت.

- لعلك مصيب في قولك. لكن، اعذرني وقد تكرمت بالحضور. صحيح اني لست غبية ولم اعرف ان ما رأيته ليس سوى حلم مزعج، لكن خوفي بلغ منتهاه. لماذا تعبس في وجهي؟ فأنا لم أرتكب خطيئة.

أوضح وهو يضرب يديه ببعضهما:

- ارجو المعذرة يا كاترين. لقد اوشك الفجر ان يبزغ.

- عظيم! سوف انهض اذن.

- لا تتصرفي بحماقة، بل لازمي فراشك.

واطلقت تنهيدة سريعة سمعت بوضوح في هذا الجو المشحون. ولم تقدر في أي حال ان تخفي مشاعرها عنه اذ ارتعشت حواسها وغمرتها سعادة عارمة لأنه وقف بقربها يتأملها وقد بانت نفسه الحقيقية المنضبطة وظهرت امارات الجدية على محياه بحيث بدا مرح لايسي طيش اطفال واستهتاراً. ثم سألته وقد احست انها على قاب قوس أو ادنى من كارثة جديدة:

- من المؤكد انك لا تظنني أحاول جذب الاهتمام الي.

- تفترضين انك تتنبئين بالحقيقة.

قالت متلعثمة من فرط حماستها:

- قلت لك ان ايما كانت هـ... هنا.

- كاترين!

وصاحت وقد التهمت عينها رفيقها:

- لا شك ان تدرك جيداً ان ثمة سراً يكتنف قصة ايما.

- اني ادرك ان لايسي ملأ رأسك هراء.

فتحدته متسائلة عما اذا كانت الخزانة خزانة ايما، وكأنها قصدت انه خبأ عنها سراً دفيناً. اجابها متأملا وجهها:

- انك تبعدين كثيراً بخيالك.

- اليست كذلك؟

- بلى. واذا لم ترغبي بوجودها هنا، يمكنني ان انقلها.

وثبت نحوه وثبة ظبي وسألته مستفزة:

- الى اين؟ الى حجرتك ام الى حجرة لايسي؟ انني اراهن ان الخالة ايلينور لن تسمح بدخولها الى غرفتها.

- انك تهذين.

وبانت عليه علامات التوتر والجمود التي زادتها اندفاعاً بدل ان تخفف من ثورتها. وردت بعينين طارفتين:

- لست افعل. طالما كنت تعرف كل ذلك عن الخزانة، لماذا لم تخبرني؟

اطلق انفاسه المحبوسة بسرعة:

- اذا شئت ان أوسوس لك وأسر امامك بقصص الارواح والخرافات، فاني لن افعل.

هزت شعرها بقوة فانسدل حول وجهها بينما صاحت:

- لن تفعل؟ ألم اعلم الحقيقة يا مكميلان ان السيدة العجوز موجودة دائماً لمساعدتك عندما تفقد قدرتك على السيطرة.

- كفي عن هذا الهراء.

- لا استطيع، فثمة ما ينهشني من الداخل.

وانهارت فجأة، وعجزت عن استكمال حديثها. فشدها نحوه بشراسة برزت معها قسوته وتيقظ اعصابه. وتضاءلت اهمية شبح ايما ازاء حاجة كاترين الملحة والمخيفة. وقال:

- اهدئي، وتصرّفي كما ينبغي.

فتنهدت وهمست: «كوين!» فما كان منه الا ان صرخ:

- كفاك. هيا انهضي يا كاترين. هل سمعت ما قلته؟

تكلمت برقة حاكت رقة سقوط حبة المطر: «كلا». وفاجأتها قدرتها على النطق في أي حال. فانهضها مؤنباً:

- بحق السماء يا كاترين كفي عن هذيانك وتصرفاتك. انك بذلك تعقدين الامور بالنسبة الينا نحن الاثنين. كاترين!

وضاقت عيناه، فيما تأمل وجهها وقد بدا غريباً بعض الشيء. ثم دفعها. فوقعت مستدركة ان تلقي برأسها على السرير، وعصف الحنين بقلبها وتغير لون عينيها بينما اغرورقتا بدموع الحزن:

- اني اعلم. اعلم. الا انني لا اهتم. لا اهتم. لا اهتم باياذائك لي مدركة ان جسمي سيمتلىء رضوضاً مع الصباح.

صرّ اسنانه بينما ارخى قبضته الفولاذية القاسية:

- ارجو المعذرة. ولكن، لا تتجاسري ثانية.

فحركت يدها في حركة مبهمة تنمّ عن يأس قبل ان تمرّغ عينيها بمؤخرها. ورددت بانفاس متعبة محاولة استعادة قوتها المتلاشية للسيطرة على نفسها:

- لتحل علي كل لعنات السماء.

غير ان ملامح مكميلان لم تكن لتتغيّر واضافت:

- ألف عذر... إحسبني أحلم.

قال دون ان يظهر عاطفة او انفعالا:

- فلنلقي اللوم في ما حدث على ايما. ماذا افعل بك يا كاترين؟ واين ذهبت ايلينور؟

وتدفقت الحياة في صوته من جديد قبل ان تجيب بحزن:

- لا اعرف! فاني ذاهبة. وساهجرك.

رفع يده ثم شدّها بحذر قبل ان تهوي على وجهها، وقال ساخطا:

- اصمتي.

- لا تتوقف.

- ايتها الساحرة، يا ذات الوجه الشبيه بالزهرة، انهضي.

ثم استدار مبتعداً بيأس مثل رجل يلجأ الى آخر حيله:

- انهضي وارتدي ملابسك. قلت انك تريدين الذهاب، وستتناولين فطورك مع الفجر قبل ان نركب الجوادين. فأنا اشعر بخوف من الأماكن المغلقة في هذه اللحظة.

لم تقو على تحمل مشاهدته في غرفة نومها بعينيه السوداوين الناريتين، وحاجبيه المعقودين توتراً واصراراً وثورة. وانتبه الى نظراتها المركزة عليه، فقال لها:

- ارى انك تمتعين نفسك ايتها الشقية الصغيرة.

ردت وهي تضع يدها على عينيها لفرط ذهولها:

- ابداً. فانا احبك، واقسم على هذه الحقيقة.

- ايتها الحمقاء الصغيرة! ماذا تعرفين عن الحب، انت وحكيمك الذي سعى بنفسه الى مثل تلك الورطة...

اكدت دون ان تتأثر بعدم خبرتها:

- اعرف اني احبك.

تغيّرت ملامحه ولانت خطوط التوتر البارزة حول فمه:

- اذا اظهرت، لك حبي، فانك ستجنين. ولكن، اين هي ايلينور؟

كررت قولها: «جربني» ببرودة وقد تحول منظر عينيها الدامعتين غريباً، وزالت الحمى في دمها اي احساس بالتحفظ او الانضباط. ثم اضافت:

- من سيسمعنا او يكترث لنا؟

تألقت عيناه المسمرتان عليها وقد خلتا سمة التعالي والابتعاد:

- انك تدركين انني اتوق الى ذلك بكل جوارحي. لكن عقلي يأبى ذلك. اما الآن، فانا ذاهب، ولن اكترث اذا هاجمتك ايما.

تأملت ظهره وهو خارج، فرأت رداءه الأزرق زرقة ريش الطاووس والمزيّن بخطوط وطيات حمراء داكنة. وقصد الباب بعزم ورشاقة لازما خطاه. فارتسمت على شفتيها ابتسامة مكتومة. وخاطبها بلهجة جارحة فيما لم تر سوى منظره الجانبي الشبيه بمنظر النسر:

- الى التلال، أو الى اي مكان آخر.

ثم مدّ بصره عبر الممر، ليزول توتره وتحل محله سخرية مرحة:

- ماذا اعاقك يا ايلينور؟ لا لأن الأمر مهم، ولكن لنعلمك انني وكاترين ذاهبين الى منطقة التلال:

- الا يجدر بك ان تنتظر يا عزيزي؟

وتقدمت الى الغرفة دون ان تحدث صوتاً لتنظر الى الفتاة المستلقية على السرير. وبدل الوجه المصفر خوفاً - الذي توقعت ان تراه -

وجدت كاترين كمن اضطرمت فيه النيران بينما رفعت شعرها وجعلته يتدلى بين اصابعها. وقالت ايلينور وهي تضغط بيدها على رأسها الذي آلمها:

- لم تستريحا الا قليلا. ومن الممكن ان تناما بضع ساعات حتى يطلع الصباح.

اصرت كاترين على موقفها:

- لا. فانا ذاهبة برفقة كوين.

غير انه وجد نفسه يخاطبها متهكماً بينما احست بنظرته تجلدها كالسوط على وجهها الفتي وجسمها الصغير المتميز برشاقة الراقصات:

- لكنني لا اجد سبباً لذلك كله.

ولم يكن ثمة وقت امامهما يضيعانه. الا انها رمته بنظرة سريعة اذ فاجأتها نبرته. وبادل نظرتها بنظرة باردة بينما اظهرت له طيشاً ذهب بالحيوية البادية عليه كهالة من الضوء. لم يسبق ان نظر اليها على هذا النحو. والطريقة التي حدقت بها اليه كانت تحذيراً له لم يكترث به. فصاحت وهي ترفع شعرها الكثيف:

- لا تكن هكذا يا كوين.

سألها بحدة بينما هو يراقبها:

- كيف؟

اوضحت بأنوثة ورقة بالغتين:

- تتصرف بلؤم.

- تتصرف بلؤم! يا للشقية المتمردة!

- استغرب السبب.

- اذا كنت تريدين الذهاب يا كاترين، هيا اسرعي، والا غيرت رأيي.

- سأذهب شرط ان تكون لطيفاً معي.

وابتسم ابتسامة ساحرة اضاء معها وجهه وبانت ازاءها السخرية

المتجلية في عينيه:

- ولماذا لا اظهر اللطف تجاهك، ورعايتك هي دوري الوحيد بل واجبي الوحيد في هذه الأيام؟

- لا تبالغ.

وادار رأسه الاسود المتعجرف الحاد التجاعيد نحو خالته:

- اليست فكرة احضار كاترين الى مندلا فكرتك يا ايلينور؟

اوضحت ايلينور وهي ترفض الانجرار الى معركتهما:

- لقد تحمست للفكرة قدر ما تحمست لها انا.

ثم ابتسمت ابتسامة لطيفة مساندة لكاترين قبل ان تتأمل الحليب الساخن وتبدأ بتحريكه. وبادلتها كاترين النظرات برهة بصمت. ثم انفجرت ضاحكة ضحكاً عالياً شابه قرع الاجراس في الغرفة الواسعة المغطاة بالسجّاد. فتنهد مكميلان:

- خالة ايلينور! كاترين!

واختلطت السخرية بالتأنيب في نظرته فيما انعكس الضوء بشعاع اصفر على وجهه. ثم استدار وتركهما.

وانبلج الصبح رقيقاً ساحراً رافقته نسيمات شقت الغيوم الليلكية فيما سبحت الشمس في الأفق بقوة وسرعة هائلتين قبل ان تسطع متوهجة على الارض وانسانها. وانقطع الصمت الذي ساد في السحر بعد ان غاب القمر ونجمة الصبح وشرعت العصافير المستيقظة تغرد وتزقزق وتنهض عن اغصان الاشجار المزهرة وكأنها دوامات الريح منطلقة نحو البحيرة. وصعب تمييز الاوراق الخضراء والرمادية قبل نهوض الطيور التي طغا على اصواتها زعيق عصفور الجزار في تحيته الصباحية.

واغرورقت عينا كاترين بالدموع دون سبب. واعتراها فرح عارم يعقب فترات التوتر الشديد عادة. وسحرتها هذه البلاد، فتعلقت بها مثل كوين. وسرتها معرفة هذه الحقيقة التي شابهت الحلم. واحست انها امتداد له. وسارا بصمت موح ومعبر انتفت معه الحاجة الى

www.elromancia.com

الكلام. وسكتت كاترين لأن لها قدرة التمتع بمثل هذه الفترات من الصمت احالم. واكتفت برفقة كوين مع الصباح حيث تسنى لها مجال لمشاهدة طيور الكركي تؤدي رقصة الصباح فوق القصبات المتمايلة مع النسيم او تنقض على اوراق زنابق الماء الشديدة الخضرة.

وافاد الجوادان في مسيرهما من كثافة العشب الاخضر الذي حف بجوانبها مزهواً بازهاره البرية المتفتحة. ولم يكن السراب قد ظهر مع هذه الساعة المبكرة من الصباح عند خط التلال الرملية وفي المدى مشوهاً الواقع والحقيقة، بل تميزت السماء بالصفاء. فكان هذا الصباح الرعوي مكافأة قيمة لاسيما وانها خرجت مع كوين لتنشق الهواء الطلق المعطر برائحة النعناع. ومرت بجانبها فراشة بالغة الجمال ذات اجنحة مخملية زرقاء متراخية، ثم اختفت. ولم تشعر بالتعب اذ تلألأت عيناها كما لو نامت ساعات طوال. وكان بامكانها ان تقضي ساعات النهار وربما الليل في الخارج اذا دعت الحاجة.

وضجّت الأرض ذات الاشجار الخفيضة الممتدة الى يسارهما بالمواشي التي رعت العشب بتكاسل، او تلك التي لا زالت مسترخية. ومد احد طيور الأيمو الاسترالية عنقه تجاههما، ثم هب مسرعاً مصمماً على تدبر اموره. ولما نظرت الى ملامح كوين، وجدتها ساكنة ولكن سهلة الاختراق. لقد كرس نفسه لارضه، ولماذا لا؟ انها تنبض حيوية ونضارة، يلين جمالها القاسي حين تكتسي الارض بمثل هذا البساط من العشب وازهار الصحراء البرية... وشقا طريقهما بين مروج الزهر من اقحوان الصحراء والبراكيليا القرنفلية التي تكفي الماشية مؤونة لاشهر عديدة، علاوة على ازهار النبال الليلكية ذات التأثير الطبي المعروف والشذا العابق. وتكاثر هطول الامطار في الربيع بحيث عاشت الارض بنعيم وتعاظمت كميات الزهر المتفتحة، ووعد الناس أنفسهم بمحصول وافر من الثمار البرية وبينها انواع القرع المختلفة وثمار الكوادونغ اليانعة الليلكية

والخوخ البري وما يسمى بتفاح الايمو. وامكنها ان ترى عبر صف من نباتات الاكاسيا افراد قبائل اللوبرا يستحمون في البرك العميقة ضاحكين وهم يرشون اجسامهم البنية العارية بالمياه وقد علقت ازهار المخملية بشعورهم.

واخترقت الشمس الشقوق الواسعة بين اغصان الاشجار الملتفة مما جعل صفرة نباتات الاكاسيا الذهبية تتألق وتتباين مع ازاهير البوهينا القرنفلية والبيضاء والليلكية. وقطفت بوقا قرنفلياً غرزته في ما وراء أذنها وشابه الاضاليا دون ان يحاكيها رقة وانكساراً. واجتازا منطقة الاشجار باتجاه التلال المحرقة حيث تحولت الارض موحشة وصعبة المسالك بحيث تعذر عليها السير دون مساعدة كوين وارشاده بعد ان تركت الارض المنبسطة وراءها والاخاديد المليئة بالمياه الجارية، ومروج اشجار الشاي والكوراجونغ الى حيث نما عشب السبينيفكس الاسترالي الصلب موفراً مسكناً للسقايات وحيوانات السقنقور الصغيرة الجسم والخنافس، التي تقيم في رمال الصحراء.

وقطع الجوادين طريقهما بتأن ودقة مرسلين الحصى عبر المنحدرات. والغريب ان الركام قد اختفى بين بحر من نباتات التيفاء الخضراء والمتماوجة. مرّ الريح بسحر وفتنة يحاكيان سحر وفتنة الببغاوات المحلقة فوقهما. ورفعت كاترين قبعتها لتدليها على ظهرها بواسطة سيورها. وجدير بالذكر ان قبعتها من النوع الذي يلبسه رعاة البقر في جنوب اميركا. واستمتعت بالنسيم وهو يداعب شعرها ويلفح وجهها وادركت انها ستحتاج لوقاية القبعة العريضة بعد قليل. واختبأت كل مخلوقات الصحراء التي سرحت ومرحت تحت جنح الظلام مع شروق الشمس. ومن تلك المخلوقات ابو بريص والفأر ذو الجراب وفأر البندقوت الهندي الضخم، والتي تتمتع جميعها بذيول طويلة سوداء وبيضاء. وكلها مخلوقات ليلية تخاف النهار على عكس قرد الكنغرو الذي سلك المنحدرات رافعاً ذيله عن الارض.

ولما بلغا تلة ميزا المنبسطة عند قمتها، لم يجدا انهما ارتفعا كثيراً. الا انها مكنتهما من القاء نظرة دقيقة على مندلا التي تخترقها الجداول وتحدها الصحراء الصخرية والتي تشكل قارة مستقلة بذاتها. وادنى كوين حصانه الاسود الكبير من مهرتها الهادئة، وسأل:

- هل تعبت؟

- ابداً.

والتقت عيناها بعينيه السوداوين المستفزّتين وقال لها:

- اذن، فانت فتاة بين مليون. كم ساعة نمت؟

ابتسمت له:

- وماذا عنك؟

- انا، امر مختلف.

واطلقت تنهيدة مغرية:

- امر مختلف حقاً!

ارتفعت فوق رأسها نبتة اكاسيا قزمة نمت بطيئة في الصخر أزاحها كوين بيده ثم نظر الى رفيقته قائلاً:

- سوف نترك الجوادين هنا لأني اريد ان اريك شيئاً، هذا اذا كنا محظوظين.

وابتسم لها ابتسامة اكثر سحراً من البسمات القليلة التي استقبلها بها عند وصولها الى مندلا. فتفجرت السعادة داخلها وكأنها ينبوع جمر دفّأ كل جزء من جسمها حتى اصبحت مستعدة ان تلحق به الى كل مكان. وازدادت سمرة بشرته في وهج الشمس سمرة. ثم استدار وامسكها من رسغها ليقودها على صفحة الصخر. لكنها وضعت اصابعها بين اصابعه التي ضغطت على يدها. وشعرت بان لا عظام لها. وباذعانها لسيطرته توقف برهة ونظر اليها نظرة غريبة صعب تحديدها، فبدت معها الارتفاعات والمسافات والاخطار بلا معنى أمام قوته وصلابة ملامحه.

واستأنفا المسير. وهب الهواء فرفع خصلة حريرية كثيفة عن

وجهها. وبدت منطقة التلال مروعة ومخيفة بالمقارنة مع رياض الصحراء المنبسطة والمفعمة بالعبير. فمنطقة التلال قاسية وصعبة يندر ان يرى المرء مثيلا لها، كما انها لا تشبه الصحراء... لم يجذب عشب السينيفيكس النامي حولهما النسور ذات الاذناب القوية. وبينما تقدّما صعوداً اوقفها في شق طبيعي في الصخر حيث توافر لها بعض الامن.

- قفي هنا. فانت في مأمن من اي شر. اغمضي عينيك قليلا!

اطاعت كاترين الأمر الصارم. واسندت نفسها الى الصخر الجاف. ولم ترغب بالنظر الى اسفل لأنها لم تنعم بالأمن الذي يوفّره وجود مكميلان بقربها. انها لا تحب المرتفعات مثل معظم النساء. ولكنه عاد اليها في وقت قصير شامخاً بقامته النحيلة. وهو يمدّ يده نحوها. فمدت له يدها. ورفعها اليه مطمئناً:

- لا تخافي. انك سالمة وفي امان.

قالت بمكر وهي تبعد وجهها لتخفي شفافيته:

- لست خائفة على نفسي.

لكنه رفع امام وجهها عشرات الوجوه الصغيرة الجميلة لزهرة في منتهى الحسن تعتبر معجزة في نموها في الصخر القاحل. وتتألف من اربع وريقات تشبه المروحة، ذات لون قرمزي باهت وصفار ضارب الى البياض، تتشكّل في مجموعة من الاوراق الخضراء. وقطع الصمت بقوله:

- يسمي علماء النبات هذه الزهرة «كليوم اوكساليديا». اما انا، فاسميها زهرة الريح. ولن يمكنني ان اعرف كيف تثبت نفسها في هذه الحجار الصغيرة. لكنها في اي حال تتكيف مع اسوأ البيئات. وبيئتها لا تخطر بالبال، مثلك.

وطغت على محياه بينما نظر اليها سمات توحي بالقلق. قالت وقد احمرت خجلا:

- انها جميلة.

وابتعدت عنه مقتربة من مكان نمو الزهرة حيث ركعت لتتأمل لونها الفاتح الهادي، تحت اشعة الشمس حيث لا يمكن توقعها تماماً كما لا يمكن تصور وجود قطع الثلج هناك. ولمست بلطف ونعومة احدى ورقات الزهرة التي بدت لها كزهرة الكاميليا تتأثر بمجرد لمسها. ونطقت بصدق مطلق:

- لم اشعر بسعادة اعظم من هذه في حياتي.

وبدرت من الرجل الطويل الغامض حركة خفيفة فيما حدق اليها. فاخذت تردّد لحناً في رأسها. وامرها بينما مد يده اليها:

- هيا انهضي يا كاترين.

وقفت تحت اشعة الشمس التي ابرزت التموجات الذهبية في عينيها وسطعت على رأسها الصغير.

- انك حسناء يا زهرة الريح، يا طفلتي. لكنك عندما تصبحين امرأة، سيزداد حسنك حسناً.

نظرت اليه واجابته بصوت حالم دون ان تدري:

- انني امرأة الآن. لكنك لا تعترف بالواقع. ولقد رسمت في ذاكرتي كل معلم من معالم وجهك من عينيك السوداوين واهدابهما الطويلة وحاجبيهما البارزين اللذين يصبحان مخيفين عندما تغضب، الى خديك وذقنك الحاد والخطوط المرتسمة عند زاوية انفك واسنانك البيضاء.

ابتسم ساخراً:

- وماذا ترين فيّ أيضاً؟

ردت بلطف، ولكن على نحو جدي وكأنها تعلن حقيقة تدركها فجأة:

- عالمي!

وردّ بينما هو يمرّر ناظريه على ملامحها:

- انها مجرد كلمات يا كاترين يسهل النطق بها. ماذا تعرفين عن الحب وانت في الثامنة عشرة؟

استفسرت وقد تحركت اعصابها:

- اهذا سؤال ام عبارة ندب؟ هل ازعجك يا كوين؟

- اجل. هذا يهمك؟

اوضحت بتأن وصبر:

- لكنني سأبلغ التاسعة عشرة في آب. هل تعترض على غير عمري؟ واذا كان كذلك، فلا اعتقد ان باستطاعتي الاستماع اليك.

أخذ الضباب يشوب صفاء الصبح وشمسه الذهبية. اما هو، فقال ساخراً:

- اني اعلم ان الفتيات الصغيرات سرعان ما يغيرن آراءهن.

- انك لا تؤمن بحبي لك؟

- كلا.

- انك لست المثال الاعلى في ايمانك. لكنني أؤمن بحبي.

واحست مع تغير مزاجه ان ثمة ما يضربها.

- كيف يمكنني التأكد من قولك يا كاترين؟

- وهل يؤثر ذلك في شيء؟

عقّب بشيء من السخط:

- اننا ندور في حلقة مفرغة.

وكادت تختنق وهي تحاول ان تجد كلمات مناسبة لاقناعه:

- مهما قلت او فعلت، فلن تغيرني. وسأجعلك تندم على سلوكك. سأطلب الى احدى نساء القبائل ان تعد لي دواء للحب مثل الملكاري.

ابتسم هازئاً:

- انه شديد التأثير في سحره يا كاترين.

صححت لفظها:

- مينغاري اذن. اجل. ستساعدني العرّافة في الحصول عليه.

سأل بفظاظة:

- وما الذي يجعلك تتصورين انك بحاجة للمساعدة؟

www.elromancia.com

وضحكت ضحكة صغيرة متقطعة:

- ها قد غضبت. انني لا أستطيع ان افهمك ابداً. لماذا تتصرف بعدوانية نحوي؟ ألأن عمري لا يتجاوز الثامنة عشرة؟

- انني معادٍ للحالة برمّتها، لأنني لم انو ان ينشأ شيء، لا اثق بانه سيعيش طويلاً.

صرخت بحدة:

- لماذا؟ انك واثق من نفسك للغاية. والغريب ان الحالة قد نشأت، فأنا كبيرة الى حد يسمح لي بالاعتناء بنفسي وتدبر شؤوني.

- هراء!

قالت بصوت منخفض:

- لا تقل هذا لأنك تبدو رجلا متعصباً، في حين انك لست كذلك. ان سني كبيرة الى حد يجعلني اجبرك على اخذي في عين الاعتبار. فسني تسمح لي بانجاب ولد اذا شئت.

صاح بسخرية متفاقمة:

- يا لله!

وصرخت هي يائسة يأساً مطلقاً:

- ماذا دهاك يا مكميلان؟

آلمها كثيراً بعدها عنه. الا ان جموده اخافها ايضاً. وعقب بجفاء بينما عبر مظهره عن توبيخه لنفسه:

- انت يا كاترين التي سببت لي مشكلة!

واغرورقت عيناها المغمضتان بالدموع الحارة التي تسللت عبر اهدابها لتسيل على وجنتيها. فصاح اذ رآها:

- يا الهي! ماذا جرى يا كاترين؟

وساعدها على مسح دموعها. فسألته بعذوبة:

- هل انا مشكلتك حقاً انني لا أفعل شيئاً كما يجب!

اجاب بصوت مفعم بالحب بالرغم مما فيه من قوّة وسلطة:

- لست انت ابداً. بل اخشى ما اخشاه ان اكون أنا. فانت دائماً

الفائزة. لقد تصورت انني ناجح حتى الآن. كم عمرك، ثماني عشرة سنة ونصف؟ لن اكرر قولي هذا ابداً. لذا اصغي جيداً. لا زلت صغيرة جداً بالنسبة الي وانت لم تري شيئاً من العالم سوى حجرة الدرس، ولم تفعلي شيئاً. وما زال امامك الكثير الكثير في عالم براق من بحار معرفة الذات واكتشافها. ومع اني بلغت الثانية والثلاثين، الا اني لم اكمل اكتشاف كل شيء. ومندلا هي حياتي الآن. فكيف يمكنني ان اطلب الى مخلوقة ضعيفة مثلك ان تشاركني اياها؟ فانت لست سوى طفلة كبيرة ناقصة الخبرة والدراية بنفسها وقوتها.

عقبت وقد دهشت:

- لم اسمع شيئاً سخيفاً اكثر من هذا القول. انك ببساطة لا تريدني.

- بل اريدك بحرارة.

فسألته وهي تتأمله بدفء مدهش وقد تعودت عليه:

- اذن، ماذا يمنعك؟

- اذا لم يكن بوسعك ان تقدري عاقبة تصرفاتنا، فانّ بوسعي ذلك. وهذا واجبي. انك فتاة جميلة يا كاترين. ولعلك اجمل مخلوقة رأيتها أو سأراها. وبامكانك الحصول على ما أو من تشائين. ولكن، قبل ذلك عليك فحص قدرتك والتعرف على ما يمكن ان يقدم العالم لك. والحب على درجات وانواع. وانك وانت الطفلة تموتين تحرقاً لدليل واحد على نجاح حبك الأول.

- يا لشقائي اذ اخترتك! لا، فأنا لست اقصد ذلك يا كوين لأنه ليس بوسعي ان احب سواك. وحبي لك عظيم الى حد يمنعني من التنفس.

- اخرسي ايتها الثرثارة!

- حين اكون معك، لا اخشى شيئاً.

- حتى ايما؟

- تختفي الاشباح مع شروق الشمس. لكن الحقيقة انني رأيتها.

قال فيما لاحظت ان صوته يأتي من بعيد وكأنه يفكر بأمر آخر:
- لا تكوني سخيفة يا حبيبتي.
رفعت رأسها لتسأله:
- هل تعني ما قلته؟
- وماذا قلت؟
- حبيبتي!
عاد المرح الى عينيه مجدداً وقال:
- اي شيء دونها يعتبر اهانة. انني اعني ما قلته طبعاً. فشعوري نحوك خاص ومختلف يا كاترين.
- لكنك لا تحبني. فانت لست معي أو ضدي. وانك تتجنب الموضوع.
عقب بقسوة:
- انك مصيبة تماماً.
تنهدت وقالت:
- لا تعرف الحل الوسط ابداً يا مكميلان.
- انني رجل. ولا يمكنك ان تراوغي في تعاملك معي.
- اما انا فامرأة افكر بقلبي. وربما لا يخطر ذلك لك ببال. غير انك رجل موقف، وتفكر بعقلك. لذلك لا يمكنني الاستغناء عنك. فانا لن أعرف السعادة الا بقربك.
- أظن انه من الخير ان نذهب يا كاترين.
سألته وقد تجلى قلبها في عينيها الخضراوين الواسعتين:
- هل يمكنني ان آخذ بعض هذه الزهرات؟
- ستذبل في أقل من دقيقة ان قطفتها.
فاستفزته اذ سألت:
- الا يرمز هذا الى شيء يا مكميلان؟ فانا قد اذبل ايضاً اذا اقتلعتني من جذوري.
قال بلهجة حاسمة انهت النقاش:

- يبدو انك تربحين النقاش فلنذهب.
اطاعته خائفة لتعدد الجوانب في شخصيته وتغيره الدائم امام عينيها. عليها ان تبدأ باظهار بعض مزايا النضوج هي بدورها. فبالرغم من حبه لها، الذي صرح عنه، فانه يئس منها. وعليها الا تلجأ اليه كولدٍ منبوذ. الا تتخلى عن ذاتها وتظهر عوارض عصبية كما فعلت دائماً عندما اصبحت ظروفها لا تطاق. وكان عليها ان تثبت شخصيتها ووجودها. ولكن، كيف؟
وساورتها الشكوك طوال الطريق الى الرياض والارض المنبسطة. وتصورت ان كوين يعتبرها مصدر ازعاج وقلق. واتضح من منظر وجهه وانحناءة رأسه انه عاد الى عزلته الخاصة. وزاد من تعاستها تخيلها بانها ستتغدو، بالنسبة له، مشكلة لا حل لها؟
حين تنازل، وبدأ يحادثها، التفتت اليه بشغف وشوق، ولكن بفوضى مطلقة. وسمعته يقول بلهجة حازمة:
- اصنعي لي معروفاً.
- انك تعلم انني افعل اي شيء تطلبه.
التمعت عيناه شكاً اذ اوضح معلقاً:
- آمل ذلك.
وادنى الجوادين من بعضهما. فطأطأ راسيهما ليرعيا العشب.
وقال بلهجة جدية تنم عن خطورة الموضوع:
- انك فتاة صغيرة يا كاترين، لكنك تتمتعين بالحكمة والعاطفة. يعيش جوش آرمسترونغ اياماً اضافية بيننا وهو المصاب بالسرطان. وحين ينتهي الرجل، ستشعر دبرا بالوحدة والوحشة. لقد ناقشت الموضوع مع جوش في محاولة لتطمينه خصوصاً وانني أمين على عزبته. انه امر محزن ولكنه سيحدث وقريباً جداً. ومتى حدث ذلك، اريدك ان تصطحبي دبرا انت وايلينور في رحلة الى ما وراء البحار. ان جوش صديقي ووالد دبرا المحبوب. صحيح ان هيلنا تحب والدها ايضاً، ولكن بطريقتها التي نعلم جميعاً انها تختلف عن طريقة

www.elromancia.com

دبرا. ودبرا هي اول من سينال اهتمامنا.

- يا للهول! لقد بدا لي مريضاً. الا اني لم اتوقع ان تكون حالته خطرة الى هذا الحد. هل تعرف ابنتاه بالأمر؟

- لم يخبر جوش احداً بالأمر. ولا احد يعرف بالأمر خارج المستشفى وطبيبه الا انا وانت. والحقيقة اني لم اطلع ايلينور على الأمر علماً بانها قدّرت ان الأمور ليست على ما يرام بالنسبة الى صديقنا القديم. هذا ظلم. لكن الحقيقة لا يمكن ان تختفي بعد وقت قصير. لذلك تحتاج دبرا تغييراً كاملا طالما تشوقت اليه ايلينور. انها لم تدخل في تجربة العيش لانها وحيدة وخجولة بعض الشيء. هي ستسعد برفقتك وترتاح اليها. اما دبرا، فستكون لك رفيقة عزيزة يعز نظيرها.

قالت وقد غصت:

- وهكذا سترتاح مني بعض الوقت.

- بعض الوقت، طبعاً. هل تلبين رغبتي؟

- سوف افعل طبعاً.

وطغا حزنها الشخصي على اسفها على دبرا ووالدها وهيلنا ايضاً مع ان هيلنا لا تحتاج الى من يخطط لها. وشعر بتأثرها، فقال لها:

- لا تحاولي الظهور بمظهر المهجور المنبوذ.

- وانت تبدو متوتراً وقلقاً ايضاً.

- ربما. لكن، ليس بقصد معاقبتك يا كاترين. ومن المفترض ان تكون الرحلة مغامرة كبرى لتوسيع مداركك. ان لنا اقارب في كل مكان. بعضهم في اسكوتلندا، ولنا خالة في سويسرا، واخرى في المانيا. وستستمتعين بالرحلة خصوصاً اذا قمت بها في الباخرة حيث يمكنك ان تحبي عشر مرات على الأقل قبل ان تجتازي خط الاستواء.

احتجت وقد احست بجرح واهانة مميتين:

- وها أنت تحرّضني!

ولم يكن بمقدورها ان تضيعه فور عثورها عليه. فقالت:

- لعلك لا تصدقني، بامكانك ان تدعي انه لا قاسم مشترك بيننا، لكنني احبك. ومهما فعلت او انّى ذهبت، حتى ولو الى الجحيم، فذكرياتي معك لن تمحى وستبقى واضحة ومتكاملة تماماً كما اراك الآن. قد لا اعرف كل شيء، وقد احب ثانية قبل ان اصبح سيدة عجوزاً، لكنني لن احب احداً مثلما احببتك.

اصر بقساوة تثير الرعشة:

- اكتشفي اولا مكنونات قلبك يا كاترين.

- سأفعل بقطع تذكرة الى طرف العالم الآخر.

قال وهو يتأمل في الأفق البعيد:

- طالما ادركت ان مندلا ليست العالم كله.

وتأملته كاترين. انه لرجل غريب. يا لوجهه الاسمر الوسيم المستبد! لم تفكر بالامر في البداية؟ لقد اخطأ في بعض الامور، وعليها الآن ان تستعد لفراقه شهوراً طويلة، وربما الى الأبد. ولا بد ان يبدأ بالابتهال الى الله حتى لا يلتقيا ابداً. وماذا عن هيلنا القريبة منه؟ والتهبت عيناها بدموع كادت تسيل منهما. فقررت كبتها بسرعة قبل ان تنهمر. واعلنت بثبات معتمدة على ما تبقى لديها من قوة:

- اي سماء رأيت، فاني لن ارى احلى واصفى من هذه السماء. وأي رجل التقيت فلن اتمناه او احتاجه كما اتمناك واحتاجك. وانت تعلم ذلك جيداً يا مكميلان.

وانحنت وخلصت زمام مهرتها من يديه، وحولت رأسها الى الجانب الآخر. فجفلت المهرة الحساسة وانتفضت متراجعة. ثم اندفعت تعدو فوق العشب الأخضر حيث روعت سرباً من عصافير الدوري التي انطلقت مرفرفة بأجنحتها قاطعة صمت الغابة. وسمعته يصرخ:

- كاترين!
- فلتذهب الى الجحيم.

ثم مسحت الدموع التي سالت من عينيها، وفكّرت بفراقٍ لا تقوى على تحمّله.

٨ - بالرغم من الحزن الذي ملأ قلوبهم على جوش آرمسترونغ في أيامه الأخيرة، أظهرت هيلنا حقدها وكراهيتها لكاترين. اختلت بها في الغابة لتنشب أظافرها تحت عنقها... وليجدها كوين الذي انتبه لغيابها المفاجىء، مستلقية كالطفلة على ضفة البحيرة.

تغير كل شيء فجأة مع نهاية شباط. وادخل جوش آرمسترونغ المستشفى في مراحل مرضه الأخيرة الخطرة، وقد انهكته معاناته واقترب من مصيره المحتوم. ضاع عن رشده. فاستلقى في المستشفى وقد انعم عليه بنعمة النسيان. وملأ الحزن قلب كل من احبه من افراد اسرته وأصدقائه. لكن، كان عليهم ان يتذكروا انه لا يستطيع تحمل المزيد.

وتقرر سلفاً ان تقيم دبرا وهيلنا في مندلا لتظلا على اتصال دائم بالمستشفى، وان توفر لهما الطائرة فرصة الذهاب الى هناك في غضون ساعة. وحملت كل من الفتاتين ترخيصاً لقيادة طائرة والدهما، لكن

www.elromancia.com

احتمال انطلاقهما بها لم يناقش ولو عرضاً. وينبغي ان يعالج كوين كل الأمور بعد ان تعزز تضامنهما نتيجة معاناة جوش الذي احس ان شعور كوين نحوه ساعده على الاستمرار. اما لايسي، فانتقل الى آمارو دوانز مظهراً اندفاعاً للمساعدة والتضحية وعزماً ونشاطاً عظيمين جعلت الجميع يقرون بضرورة عودة لايسي الى ارضه وعمله. وأصاب نجاحاً في عمله اكثر مما حقق في مندلا مبيناً قدرة عظيمة على الادارة، ومستعملاً اسلوب آل مكميلان مع السكان الأصليين الذين احتاجوا معالجة واعية وتكافلاً وتعاطفاً معهم لا سيما في مكان اعتبرت الحياة القبلية مهمة فيه واحترمت بين سكانه حضارته القديمة.

وانهارت هيلنا، التي لم تتعوّد على العمل نتيجة الاجهاد. غير ان عينيها الشبيهتين بعيني شقيقتها شكلاً ولوناً لم تعبرا عن الخضوع الحزين البادي في عيني دبرا. وتألقتا اذ خلتا من الدموع. فقد احزنها مرض والدها الخطير وروعها وأصاب حياتها بخوف لا يتغير خصوصاً عندما تخلت عن «ايامها الحلوة» ولم تعد تطيق الانتظار والصبر. واذا كانت الكارثة قد أظهرت مزايا لايسي الحميدة، فانها ساعدت على نمو العيوب في شخصية هيلنا. فمزاجها لم يتكيف مع الشقاء والتعاسة ولو لأيام. وبدت لايلينور في الواقع اشبه بحيوان جميل حشر في زاوية، فأخذ يتطلع بلهفة الى طريق للإفلات. وبرز الاجهاد بوضوح على قسماتها علماً بأن الجميع بذلوا قصارى جهدهم للتخفيف من حدته. وافتخرت ايلينور بكاترين ودبرا اللتين اظهرتا خلقاً رفيعاً. اما هيلنا فتصرفت تصرفاً مغايراً.

ولكن المشكلة، كانت تكمن في أمر آخر مختلف. مشكلة حقيقية لم تجد من يساعدها على تجاوزها. فهيلنا لم تر كوين الا قليلاً. صحيح انه مفعم بالتقدير والوعي، لكنه اظهر انشغالاً وقلقاً على والدها. وكذلك الأمر بالنسبة الى دبرا. وان هيلنا لم تُفهم شقيقتها حتى الآن، مما يجعل من الصعب ان تبدأ بتحقيق هذا الغرض. وتفاعل الغضب

داخل هيلنا اذ عجزت عن فهم السبب وراء سعادة شقيقتها بالقليل الذي تحصل عليه، وامتنانها لايلينور وكاترين، واجتهادها في العمل، وسلوكها الراقي. فدبرا لغز يصعب حله.

واتضح لها جلياً ان كاترين تعشق كوين. صحيح انهما يقولان اموراً بسيطة لبعضهما، بل يتجنبان فرصة تلاقيهما، الا ان هيلنا ليست غبية الى حد لا يسمح لها بمعرفة شعورهما. انه الافتتان. وتملكها شعور مفزع بأن كوين لا يتمتع بالمناعة ضد فتنة كاترين. فقد وجدته يراقب كاترين حين لا تكون منتبهة له. الفتاة جميلة حقاً. ولكن تألقها، الذي اسعد كل من حولها، اثار هيلنا. وطالما انزعجت ان ترى تميز تلك الفتاة عن محيطها يزداد يوماً فيوماً اذ ارتدت بنطلونات قصت بأناقة وأثواباً رائعة لا شك ان والدتها اشترتها لها. انها البساطة بعينها. ولكن لا بد انها كلفت كل ما في الأرض من مال.

لم يكن غريباً ان ينفجر عداء هيلنا اذن. ولكن ليس على مسمع احد. وقررت هيلنا ان تختلي بكاترين بعيداً عن المنزل وتصب عليها جام غضبها. ولم يفكر احد ان هيلنا ستتنازل عن حقوقها لكاترين نتيجة حزنها العابر. فمندلا هي من حقوقها. وهي ستصبح سيدتها. أما كوين، فانها احبته طوال حياتها ونسيت لأجله جميع الرجال. ولم تخجل بذلك يوماً وطالما اعتبرت ان من حق المرأة ان تخوض مغامرات كالرجال. وقد تعلمت الكثير من مغامراتها. الا انها تاقت الى كوين دائماً. لكنها خافت من الخيانة الآن، من تخريب لم تجرؤ ان تتفرج عليه وتأمل أن ينتهي دون ان تفعل شيئاً. وقررت ان بعض الكلمات الغاضبة تنفس كثيراً من حنقها. ستأخذ ابنة فيتسجيرالد حذرها عندما تواجه حقائق دامغة. وترقبت هيلنا فرصتها وهي التي لم ترض عما احيطت به من اهتمام وقلق الجميع.

وشعرت للمرة الأولى في حياتها انها اسيرة لا تستطيع الافلات من مشكلتها. لقد احبت والدها، لكنها احست بضغط عظيم وضياع

كبير. وأجبرت على العيش في عالم من الحزن غريب عنها. وتوجب عليها ان تقبل رغماً عنها حقيقة ان كوين لم يكن مستعداً لمغازلتها، وهي تعرف اي صنف من الرجال هو كما تعرف مدى حبه واحترامه لوالدها. لكنها لم تكن بحاجة لتحديد وقت الثورة على كاترين. فهذه الفتاة النخيلة الشقراء ستطّلع على الحقيقة. والحقيقة بسيطة تتلخص في أن كوين مكميلان لها، ولن تعدم وسيلة للحصول عليه. وبلغ الوضع مرحلة خطيرة شعرت معها هيلنا بالنشاط للمرة الأولى منذ اسابيع، فهي لن تقع في مأزق احرج من هذا وبسبب فتاة لا تكن لها اي تقدير أو احترام.

قررت هيلنا تنفيذ خطتها في الصباح حين حاولت كاترين التقاط صورة لعصافير النيلوفة وهي تتنقل على نبات الزنبق المائي قرب البحيرة، ولم يعطها اي منها فرصة تصويره. الا انها تمكنت من صد الصقر البني الذي حلق فوقها لينقضّ على سرب من عصافير الدوري المنشغلة بالتقاط الحَب الواقع على الأرض. وظلت حياة الطيور تدهشها وذلك بوفرتها. وتذكرت ان الأخت انجيلا احتفظت بزوجين من الببغاوات الاسترالية في قفص علقته على احدى شرفات الدير. اما هنا في مندلا، فأنى نظر المرء يلتقي بعشرات الالوف من الببغاوات الاسترالية بألوانها الخضراء والصفراء ومناقيدها الزرقاء المنمقة. وطالما تحركت مياه البرك الراكدة نتيجة انقضاضها عليها لارتشاف الماء في حركة طيران متموج وسريع يعجز الصقر والباز عن مجاراتها فيه. وعشش الدوري في الأشجار النامية في اخاديد شقتها مياه الأمطار الجارية وفي اي غصن مجوف، والى جانبه أنواع الببغاء المختلفة ذات الألوان الشبيهة بالكبريت والملونة بلون قرنفلي في صدرها. الا انه لم يوجد مكان امين للطيور الصغيرة هنا على الأرض المكشوفة.

أغمضت عينيها قليلاً لتنظر الى فوق وترى الصقر البني ما زال يحوم في الجو. عندئذ تقدمت من العصافير مصفقة. فطارت

العصافير الى اشجار البوهينيا المزهرة على بعد متر أو مترين. وبذلك زال خطر افتراسها من قبل الصقر الذي تابع تحويمه ومراقبته للعصافير بصبر منقطع النظير. حسناً! لقد أدت واجبها البسيط بحماية هذه الكائنات الصغيرة الجميلة من ان تضحى فريسة للصقر. وبينما فكرت بذلك، تطلعت لترى هيلنا مقبلة نحوها وهي تمشي خلسة وقد التمع شعرها تحت اشعة الشمس. وازدادت عظام وجهها بروزاً نتيجة نقص وزنها بسبب الاجهاد والتعب في الأيام الأخيرة، فاتضحت الدوائر الليلكية تحت عينيها. واقتربت من كاترين عابسة فيما قالت فجأة:

- ربما ادركت ان سعيك غير مجد. فالصقر يصطاد الطيور الضعيفة والهرمة من السرب، والا اكتظ الجو بما فيه من الطيور.

ردت كاترين وهي تجهد نفسها لاظهار اللطف:

- انني لن اسمح لذلك بالحدوث، وان اقف كالمتفرجة.

وألقت نظرة الى البحيرة الملتمعة بين الأشجار. وشرحت ماذا كانت تفعل لتسد الفراغ الغريب:

- حاولت التقاط صورة لعصفور النيلوفة. فلم اوفق.

دفعت هيلنا شعرها بعصبية وقد تضايقت من حديثها الذي لا يعني لها شيئاً وقالت:

- عودي معي الى ضفة البحيرة حيث تزداد برودة الجو، فأنا اريد ان اكلمك.

وافقت كاترين، ووقعت في الفخ. ولم تتوقع او تعلم ماذا سيحدث وقد ادركت ان هيلنا اظهرت قلقها وسخطها، وان تفكيرها قد شُلَّ مثل سائر افراد الأسرة بسبب حال آرمسترونغ المأساوية، وتصورت أنها بحاجة الى بعض المواساة العابرة. مع انها كانت تدرك ان هيلنا لا تحبها. لكنها لم تعلم قصد هيلنا لكونها مختلفة بطبيعتها عن ابنة جوش الكبرى وأشد كرماً ونبلاً. وسارتا صامتتين الى عالم البحيرة الأزرق البارد والمظلل بالنباتات المختلفة. وكانت عصافير

النيلوفة لا زالت تعدو مرحة فوق زنابق الماء. ورأت واحداً واقفاً بالقرب منها لكنها لم تكن تحمل آلة التصوير.

وتحول حر الصباح وسكونه برودة وظلاً منعشين تحت الأشجار. وحطّ على ضفة البحيرة المقابلة طائر البرولغا الضخم الذي رآهما فانتصب على قائمتيه الطويلتين وتحرك حتى طفا على سطح المياه. وفرش جناحيه ثم انطلق مرتفعاً فوق الأشجار بصوت يشبه الأنين.

فصاحت كاترين مبتهجة وقد اوحت لسامعتها انها تخاطب نفسها:

ـ ما اجمل هذه اللحظة! انني احب هذا المكان باتساعه وهدوئه وطيوره وبزوغ الفجر فيه وغروب الشمس بناريته وجلاله. وكذلك حدائق البرية الممتدة اميالاً نضيرة بالأزهار البرية وجميع الأغاني العذبة التي تمتزج فيها اصوات النساء المنشدات مع حفيف الريح الذي يحملها.

ولما طغت الحماسة على صوتها، وجعلته يبدو صغيراً ومغرباً، ردت هيلنا موبخة باقتضاب:

ـ ولا تنسي المنزل!

رجعت كاترين الى دنيا الواقع، وتأملت عيني هيلنا اللتين بهرتهما حدة الشمس:

ـ والمنزل ايضاً! انه رائع. الا اني احب البرية اكثر. والحرية. انها اعظم من كل شيء على الأرض.

عقبت هيلنا وهي تطلق ضحكة مريرة وتطرف عينيها البنيتين بحنق:

ـ ما عدا كوين!

فسألتها كاترين بلهجة غير معبرة وقد غشي بصرها:

ـ ماذا هناك يا هيلنا؟

وخطر لكاترين ان الأمر ليس بسيطاً فهيلنا ليست بحاجة لزمالتها أو رفقتها، وهي مستعدة لخوض معركة. والواقع انها ظهرت بمظهر شخص خرج للتو من الغابة، أو امرأة انتابها غضب صامت وهي

عاجزة عن فعل أي شيء سوى مكابدة حزنها ساعة تلو اخرى. وبرز جلياً ان هيلنا لم تستطع ان تقبل امر وفاة والدها، ولكن لأسباب كثيرة رأت ان تبت موضوع علاقة هذه المرأة بكوين اولاً. ولو ادركت كاترين مقاصد هيلنا الحقيقية لاذعت انشغالها بأمرٍ ما. ولكن كل ما فكرت به في تلك اللحظة هو ان هيلنا قاست ارهاقاً جماً، فرغبت مخلصة ان تهدئها. ولم تكن إثارة الشغب والشجار لتطرأ في بال كاترين في مثل هذا الوقت. اما هيلنا فلم ترحب ببدء الشجار فحسب، بل صممت على اشعال الفتيل. وقالت لكاترين بلهجة مهينة:

ـ لا بد لانسان عاقل من ان يحميك من نفسك. فافتتانك بكوين ملفت للأنظار وجدير بالاهتمام. ولا يختلف كثيراً عن أيام ولعي به، لذلك اشفق عليك. ويبدو الأمر مخيفاً الآن، لكن المرء يتغلب على الواقع. ولا تنسي ان وجود طالبة عاشقة ليس امراً بسيطاً يتسلى به كوين. ولو كنت مكانه، لأعدتك الى طرف العالم الآخر.

هل كانت تعرف سر علاقتها بكوين؟ تساءلت كاترين: هل يمكن ان يكون قد اخبرها؟ لكن دبرا، وحتى الخالة ايلينور، لا تعرفان شيئاً. وأكملت هيلنا حديثها بلهجة جدية:

ـ ما اريد قوله هو انه لا يمكن لأحد ان يحمل هذا الافتتان محمل الجد. ومن الطبيعي انك عانيت كبتاً عاطفياً بسبب والدتك التي تنزع الى المغامرات العاطفية والخيالية.

وأخيراً رفعت كاترين حاجبيها المعقودين. واتسمت عيناها الخضراوان بسعةٍ وبرود أخفيا غضبها وقالت:

ـ الم يقل المثل الصيني ان السمك والضيف يفسدان بعد ثلاثة ايام. لن تؤذيني بالحديث على والدتي لأنني طالما اعتبرتها غائبة. وأنا بالكاد اعرفها اكثر مما تعرفينها. الا انني متأكدة من انك تفعلين المستحيل لحضور احدى الحفلات التي تقيمها، كغالبية النساء اللواتي ينتقدنها... وإن والدتي هي اجمل من رأيت من النساء

www.elromancia.com

وأشدهن اناقة!

صاحت هيلنا بحقد فيما تفاقمت رغبتها بتنفيس ضغينتها:

ـ لكنها تخطت ايام شبابها ونضارتها وسن هوسها.

أعلنت كاترين بهدوء:

ـ لا مجال لمقارنتك بها. وطالما حلمت وأنا بنت صغيرة ان اكبر وأحاكي والدتي جمالاً وحسناً عندما اصبح ناضجة.

ـ لكنك عنصر لا يعتمد عليه وغير مرغوب فيه في مندلا على الأقل وان كنتِ تتصرفين وكأنك في منزلك.

اعتذرت كاترين موضحة وقد اخافتها نظرة هيلنا الحزينة وجعلتها مضعضعة ومرتعشة:

ـ لدي كل ما يبرر شعوري انني في منزلي. فآل مكميلان هم اقاربي في الأساس.

ـ الا انهم لا يعلقون اهمية على ذلك؟

ـ انه لمن اللطف ان تشيري الى ذلك يا هيلنا.

غير ان هيلنا لم تدرك انها اخطأت، وقالت:

ـ انا اؤمن بالصراحة المطلقة.

ـ الحقيقة انني اجد الظرف غير ملائم ومخيفاً. فأنا افكر دائماً بوالدك.

واعترت هيلنا موجة من العاطفة الخانقة بحيث بدت غير قادرة على السيطرة على نفسها، بل مجنونة فقدت هدوءها. ثم صرخت:

ـ لا تذكري والدي على لسانك. فأنا لست مستعدة لسماع افكارك وأفكار دبرا. ما اروعها واغربها هذه الشقيقة، التي تصادقك!

ـ ارجو المعذرة يا هيلنا.

وتجلى لها كره هيلنا لشخصها، بل للجميع. والمحزن في الأمر هو غرابة اسرة آرمسترونغ. فدبرا محبة للغاية، وهيلنا لا تجد مثيلاً لها. وطالما اعتزت الخالة ايلينور بصداقة ماري آرمسترونغ، وهي ام

الفتاتين. وافترض ان تصبح هيلنا حليلة لشخص فضل الجميع الا يتفوهوا بكلمة عنه. وسارت كاترين مبتعدة. فلحقت هيلنا بها، وادارتها نحوها بعد ان امسكتها من كتفها بقسوة:

ـ لا تهربي مني ايتها الخبيثة. فأنا مستعدة ان اطرحك ارضاً.

وبدت كاترين هادئة بالرغم من الشرر المتطاير من عينيها الخضراوين، ثم قالت:

ـ لو كنت مكانك لما لجأت الى هذا الأسلوب، وأرجو ان ترفعي يدك عن كتفي. فأظافرك اشبه بالمخالب. انني اعتبر تصرفك مزعجاً ووحشياً. على اني غير راغبة في مناقشتك اذا كان هذا ما تريدينه. والآن ارجو ان تعذريني، فأنا سأذهب الى المنزل لأن اي نقاش قد يتحول الى مشكلة.

هزت هيلنا كتفيها وابتسمت ابتسامة سخط، وقالت بلهجة عذبة اختلفت عن لهجتها السابقة:

ـ يا لك من مسكينة! انك لا تفهمين بالتلميح، لذلك ينبغي ان اصرح امامك ايتها الصبية الشديدة الانفعال انني وكوين عازمين على ان نتزوج. وان شروط نجاح هذا الزواج متوافرة من الناحيتين المادية والاجتماعية. وقد تم الاتفاق على ذلك، منذ سنوات. وهذا ما يريده والدي. اني آسفة ان تصطدم مصالحنا بوهمك وجنونك. ولكن، هذه هي الحقيقة.

علقت كاترين بهدوء وبرودة اعصاب:

ـ اذا كانت الأمور مرتبة على هذا النحو، فلماذا تهتمين بي اذن؟ لم يتضح لي ان كوين شغوف بأي منا في الوقت الراهن. والحقيقة، انني استطيع التأكيد بانه لا يبالي. ولعلك اغويته لكي يتزوجك مع انني لا اعتقد انك فقدت ثقتك بنفسك...

تجنبت هيلنا الاغراق في التعليق، ومسحت فمها الذي بدا في وهج الشمس الساطعة اشبه بجرح احمر كبير وقالت:

ـ هذا محتمل.

وأشارت كاترين بمكر:

- تتغير الظروف كما تعلمين.

ساد الصمت لحظة وقفت فيها هيلنا منتصبة بقامتها الطويلة وجسمها السمين وعينيها البنيتين المكفهرتين ووجهها الناطق بالسخط. ثم صاحت:

- عليك اللعنة. كيف تجرؤين على قول ذلك؟

- لا تكوني سخيفة. من العادة الا يقبل الذين يبدأون مثل هذا النقاش اية ملاحظة. ان هذا لم يخطر لي ببال. فأنا اكره القباحة والشناعة في سلوكك. ومجرد التفكير باثارة الشجار مع امرأة اخرى حول رجل ما يحزنني حتى البكاء.

ردت هيلنا وقد اطبقت شفتيها ورفعت يدها:

- انك تخوضين مغامرة خطرة معي.

وتسمرت كاترين في مكانها برهة قبل ان ترفع شعرها الأشقر البراق عن وجهها. وأكدت بلهجة خلت من أي انفعال لعلمها انها عاجزة عن مجاراة مثل هذا الحقد والخبث:

- لا اريد ان اسمع المزيد.

وأحست كمن داس افعى ذات اجراس. وأضافت بصدق:

- كم امقت الشعور بالغضب. والواقع انني حزينة من اجلك.

صاحت هيلنا بعنف وقد عجزت عن قبول مثل هذا الكلام:

- حزينة من اجلي؟ هذا كذب، وأنت تعرفين ذلك.

اعتمدت خلال فترة غضبها وثورتها على الافتراض بأنها المرأة الوحيدة في حياة كوين وقد اصبح منذ وفاة والده رجل عمل الى اقصى الحدود وارتبطت باسمه المزرعة التي لم يسهم لايسي في ادارتها حتى الآن. ولم يتسن لكوين وقت يخصصه للغزل والمداعبات، لكن هيلنا قررت ان عليها ان تتخلص من هذه الفتاة وتعاظمت غيرتها امام الظل الجميل الذي رسمته كاترين لنفسها في الفيء حيث البرودة واللون. يا لبشرتها الرائعة، وشعرها الفتان، وعينيها

الساحرتين! انها تمرض النفس! وتقلصت قبضة هيلنا. فهي لا تستطيع ان تفقد كوين الآن. لا لشيء الا لأنه رجلها بعنفوانه وشكله المثير والمغري. انه رجل حقيقي. وفوق كل ذلك، ورث مندلا. وأية امرأة عاقلة تتردد في الحصول عليه؟

وخفق قلب هيلنا خفقاناً قوياً بينما تقدمت من الفتاة التي وقفت تراقبها بعينين حائرتين وغاضبتين. وعلا وجه كاترين الرعب لأنها ادركت اختلالاً في تصرفات هيلنا العدوانية. وتساءلت عن مدى صعوبة ان نكره شخصاً. ظهر لها ان ليس ثمة ما يساعد على تهدئة هيلنا التي لم تستطع تحمل فقدان كوين. وصرخت هيلنا بيأس مرير:

- من المؤكد انك لا تعرفين انني اضعت كل هذه السنين. ولذلك لن اقف مكتوفة اليدين الآن.

وتملك الخوف كاترين. فاشتد خفقان قلبها. الا ان روحها الطبيعية سرعان ما عادت اليها تهدئها وتقويها. وراوغت، فحنت رأسها فيما هاجمتها هيلنا. وكادت تفقد توازنها عندما اصطدم كاحلها بغصن ساقط.

وانتهزت هيلنا الفرصة، فأسرعت نحوها واستعملت اظافرها المطلية بصباغ قرمزي سلاحاً في هجومها. وأخطأت هدفها. فنشبت اظافرها بجانب عنق كاترين حيث خدشت جلدها. وتنفست كاترين الصعداء بينما ارتجفت قدماها وشكرت الله اذ اخطأت هيلنا هدفها، وصُدِمت صدمة لا توصف. وهمست كاترين وقد انقطعت انفاسها، ولكن دون ان تخشى هذه المخلوقة اللاهثة حقداً وغضباً:

- ما احقرك! انك لست امرأة، بل نمرة متوحشة خرجت لتوها من الغابة.

ولمست جرحها المؤلم حيث سال الدم حاراً على جلدها الناعم، ولوّث قميصها. وأضافت:

- لو كنت مكانك لخجلت من نفسي الى الأبد ربما.

بادلتها هيلنا النظرات وقد شعرت شعور امرأة مخدرة شحب

وجهها والتمعت عيناها ببريق غير مألوف. وخاطبتها بهدوء:

- لعله افادك مثل هذا الدرس، وساعدك على فهم الأمور كما يجب!

عقبت كاترين بينما ثنت ياقتها واستعملتها لتغطية جرحها:

- انك مجنونة يا هيلنا. واتصور انك ستسمعين هذه العبارة كثيراً في حياتك.

تجلى الصدق في محياها لا الاتهام واستوعبت هيلنا، بالرغم من هياجها، قول كاترين. ثم صرخت:

- لا تخبري احداً كيف جرحت.

ثم انفجرت باكية بصوت عال وقد انطفأ نار غضبها وحقدها دون ان تعتذر على فعلتها أو تشعر بالخجل.

ولما ذهبت هيلنا، شعرت كاترين بالضعف الى حد انها لم تلمح عصفور قوس قزح وهو يطير من الأشجار قربها. وفيما اكتنف الضباب مجال رؤيتها، استطاعت ان تميز ظلال ازهار النيلوفة الزرقاء والعاجية على صفحة البحيرة التي تقدمت منها مرتجفة. كوين! كم يستطيع ان يعمل لحمايتها من الخطر، وقد اظهرت هيلنا غيرتها المجنونة؟ ثم اخرجت المنديل من جيبها وبللته قبل ان تعصره وتضعه على عنقها الموجوع. فآلمها الجرح من جديد. وارتسمت في ذهنها صورة لوجه هيلنا الذي شوهته الكراهية ويديها الطويلتين وأصابعها ذات الأظافر البارزة المصبوغة الطويلة. وظنت انه لا يمكن لأي انسان فيه ذرة من الاحساس ان يمتلىء قلبه بالحقد والكراهية في مثل هذا الوقت حيث يتطلب امر وفاة جوش آرمسترونغ المرتقب وقفة تأمل وخوف.

ورغبت بالتقيؤ. فانحنت ورشت وجهها ببعض الماء البارد الصافي. وخشيت ان تنظر الى هذا الخدش الطويل المؤلم. وفكرت ان تأخذ حقنة ضد «الكزاز». وانكمش قلبها كآبة اذ خطر لها ان كوين يجد هيلنا جذابة. فهيلنا متوحشة كالصقر وسامة وخبيثة كالحية

ذات الأجراس. يا للائتلاف الغريب! وتسارعت انفاسها بينما علا وجهها شحوب اشبه بشحوب الموت. وأكد لها ظلها المرتسم على صفحة البحيرة ذلك. اين اغرقت ايما نفسها؟ ربما كان ذلك في أي مكان من الأماكن الظليلة. فهناك تكثر البرك العميقة.

ورفعت رأسها. فتطايرت قطرات الماء واستقرت على شعرها مثل حبات من الماس. وماذا تفعل الآن بعد ان انقلب صباحها الجميل الى ساعة للعراك والشجار؟ انها تستطيع الآن ان تعدو نحو المنزل صارخة: انظروا ماذا فعلت بي هيلنا المجنونة. ولكنها ستتحين فرصة لذلك. فمن المأساوي ازعاج الجميع مجدداً. وأدركت كاترين ان دبرا ستروّع للخبر الذي ستصدقه سريعاً. ولعل الجميع مقتنع بأن هيلنا متوحشة بعض الشيء... الا ان الوقت لايضاح ذلك لم يكن قد حان بعد.

وضحكت بصوت منخفض حزين وصادق. فالضحك مصدر قوتها. وعلمت ذلك بالرغم من صغر سنها. كل ما عليها فعله الآن الادعاء بانها تعرضت لحادث معين، بينما يتقطع قلبها سراً. استلقت على العشب الأخضر الذي احاط بوجنتيها، ونظرت الى الأشجار حيث تنقلت العصافير على اغصانها متباهية بألوانها. وتوسدت شعرها الحريري الكثيف، ثم اغمضت عينيها وقد خف شعورها بالصدمة. وشعرت انها بحاجة الى بضع دقائق من الراحة والنسيان تسترد بعدها قوتها.

وغرقت في نوم مريح منعش نتيجة الارهاق الشديد الذي اصابها، ودخل السلام والهدوء قلبها وهذا كل ما تريده. السلام! ما اسوأ ان تكون متمتعة بمزايا هيلنا المشينة. وطارت العصافير الصغيرة عن الأشجار لتحط بقربها تتأمل حواء المقيمة في فردوسها. لكن كاترين اغفت ونسيت اصدقاءها المغردين.

وتوجه مكميلان الى البحيرة بدافع قلق، متوجساً خيفة على كاترين. وضغطت مشاكل كثيرة على فكره. ولكن، اين هي

كاترين؟ لم تحضر الى الغداء دون ان يكون ثمة سبب لتغيّبها المفاجىء. ولم ينزعج، في الحقيقة، بسبب ذلك لأنه يعرف ان كاترين من الأشخاص الذين يجلسون الى الطعام في مواعيد مختلفة، ولكنه اراد ان يعرف اين توجد بالضبط في كل دقيقة من النهار. وقد تنبه الى القلق البادي في عيني ايلينور الزرقاوين بالرغم من انها وصفته بالدجاجة الخائفة على احد فراخها. ولم يكن يتصوّر ان ايلينور تشاطره احاسيسه. لا شك ان حادثاً وقع لكاترين، ولكن، ما هو؟ بامكانها ان تنطلق مع لايسي في مغامرة طائشة. ونبذ الفكرة معتبراً انها تجحف بحق كاترين. وكبح جماح خياله. فلايسي يعمل بجد ونشاط، وكاترين هي كاترين الصغيرة، التي لم تعد طائشة كما عهدها في فترة سابقة.

ولم يرتح بل غضب عندما وجدها مستلقية على ضفة البحيرة. انها اشبه بالطفلة. يا للسماء! ما الذي جعله يفكر بذلك. ولكنها هكذا بدت له بملامحها الساكنة. ادار جواده الأسود، ثم تركه يرعى العشب بينما سار نحوها دون ان يحدث ضجيجاً. واجتاز الضفة باتجاه الفتاة الراقدة. وتأمل وجهها بكامله، قبل ان يتوقف. وناداها صائحاً قبل ان يحني رأسه لتفحص ملامحها الشاحبة. وركع على ركبتيه قلقاً فيما رفع ياقة قميصها ليتفحص جرحها. وأمرها بأخفض الأصوات وبرقة:

- كاترين، استيقظي.

وسمعت النداء وهي محاطة بسحب النوم. وأحست بظله المديد. وفتحت عينيها الطارفتين لأنها وجدت صعوبة في توجيه نفسها. ثم تنهدت مطلقة صوتاً شجياً. وتلألأت عيناها الخضراوان كالأوراق العالقة بشعرها:

- آه يا كوين.

وانحنى فوقها بصمت مطبق، وبملامح حاكت ملامح التمثال قسوة وتحرراً من الانفعال بينما تفحص الجرح المتورم وأثر الدم الجاف

المتجمد. وسأل هامساً بحنو:

- ماذا حدث؟

تجاوزته ببصرها وكأنه ليس موجوداً بقربها فيما ردت:

- غامرت قليلاً، فسقطت عن الشجرة عندما حاولت التقاط صورة واضحة. أنت تعرفني وتعرف هوسي بآلة التصوير.

- أجل، أعرف ذلك. ولكن، اين هي آلة التصوير؟

بدرت منها اشارة غامضة اذ لم تتأكد من مكان وجودها. لم تشك في أن هيلنا قد حطمتها. وقالت متظاهرة بأنها أدركت مكانها:

- انها هناك.

- عظيم! لماذا لم تحضري الى البيت اذن؟ فهذا الجرح يحتاج الى عناية. اراه خطراً وخبيثاً.

لم يكن بامكانها التأكد من ان كوين قد صدّقها. ادعت انها خافت، وكان قولها هذا يفسر كل شيء. لم تكذب في ذلك. الا انها شعرت بالعجز والخوف امام نظرته الفاحصة. ورددت:

- خفت؟ اجل. لقد خفت يا كوين.

وأملت ان يصدقها لأنها شعرت برغبة جارفة ان تختفي من الوجود. فهدأها:

- حسناً! سننتظر هنا حتى تستعيدي قوتك. وستخبرينني لاحقاً بما حدث. فأنا لست مجنوناً لكي اصدق ما تقولين. لكنني لن اضايقك الآن. لذلك استلقي واسترخي. فسأكتشف أبعاد القصة فيما بعد.

- هل تعني انك لا تصدقني؟ هل من الضروري ان تجري كشفاً وتحقيقاً عن الأسباب بعد الوفاة؟

ما كادت تتلفظ بالعبارة حتى فوجئت بمغزى تعبيرها، وأخفت حشرجتها المتقطعة بكاءً مريراً. وأجابها بايجاز:

- ابكي بصورة معقولة اذ لا داعي لتقنين دموعك.

وعزمت ان تخبره عن حبها له. لكنها توقفت عن مسعاها. لعل الأولاد وحدهم لا يترددون بالاعتراف بحبهم. وربما اكتسب

الناضجون ميزة الكتمان. غير ان عبارة «احبك» هي الوحيدة التي تعبر فعلاً عن حقيقة نفسها. وما اجمل التمتع بحرية قول «احبك»، دون ان تواجه بالرفض والصد. فطالما نبذت ورفضت طوال حياتها. الا انها لا تستطيع ان تتحمل ذلك من كوين. ورفعت رأسها فجأة اذ شعرت ببعض التغير حين شاهدته يتأملها. فخاطبها بنبرة غريبة:

- كاترين، لا يمكنني في هذه الأيام ان اسمح لك بالغياب عن ناظري.

وسألته بالرغم من كل الأفكار الجديدة التي اختمرت في رأسها:

- وهل ذلك ضروري؟

- سوف تظلين بقربي، ليتسنى لي مراقبتك والاهتمام بك.

- يا للعلاج العجيب!

وسمع صوت حصان يعدو فوق المرتفع. فانهضها كوين وساعدها على موازنة جسمها. وأطل خادم المنزل جوزيف راكباً حصاناً كبيراً ضارباً الى السمرة، وسمعا صوت الصبي الصارخ بين اشجار الغابة الصغيرة «سيدي»، اسرع نحوهما وقد كاد نفسه ينقطع: «اسرع يا سيدي».

واستدارت كاترين لتتفحص وجه مكميلان. ولم يكن اي منهما بحاجة لمن يخبرهما بأن جوش آرمسترونغ قد توفي.

٩ ـ سافرت كاترين وقضت اياماً ممتعة مع إيلينور ودبرا. ولكن أجمل بقاع الأرض لم تكن لتنسيها كوين. بعد عودتها، قررت أن تقوم بمحاولة أخيرة. . . ووجدته يعترف بحقيقة حبه لها، وبوطأة الأيام التي فارقت فيها مندلا!

اشتاقت الى مندلا بينما زارت اجمل مدن العالم. وحاولت جاهدة ان تستمتع برحلتها. ونجحت في مسعاها اوقاتاً طويلة. ورأت أشياء كثيرة ممتعة تلفت النظر من تحف الفن والهندسة القديمة والكلاسيكية، والعائدة الى القرون الوسطى أو عصر النهضة الى جانب التحف العصرية الحديثة. ما أروع السفر. وأقرت بانها لم تشتق الى مندلا. الا ان شخصاً واحداً كفى لقلب عالمها وتغييره. كوين.

وفيما اندفعت على احد منحدرات التزلج في سويسرا، تراءت لها صورته فجأة. لقد عرفت هاتين الرجلين الطويلتين، والكتفين

www.elromancia.com

العريضين والرأس الثابت ذا الشعر الفاحم. استدار بقامته النحيلة. وتوقف ليناديها بلغته الفرنسية:

- هل اصبت بالدوار يا آنستي؟

لقد اصيبت بالدوار حقاً، وكان عارضاً من عوارض الهذيان التي تشعر بها فتاة ألمّ بها الهوى.

وذات يوم تناولت غداء فاخراً في احد مطاعم روما حيث نظرت عبر النافذة المحجوبة بستائر مخملية لتلمح كوين يدخل سيارة انخفض هيكلها حتى كاد يلامس الأرض. ووجدت صعوبة في تمييز جمال بشرته التي تشبه لون الزيتون بينما ارتدت هي سترة صوفية من لون فرو حيوان المنك. واضطرت الخالة ايلينور ان تحدث اصواتاً منخفضة حتى تجذب انتباهها اليها.

وحدث الأمر عينه في معرض ازياء باريسي. وكانت عادة الهذيان هذه قد تأصلت فيها بعد غياب ستة اشهر عن مندلا. ولم تعنِ مجموعة اثواب سان لورون شيئاً لكاترين، وكذلك وعد الخالة ايلينور لها باهدائها احد ثوبي السهرة الرائعين اللذين تمنت كاترين الحصول عليهما. وكان عليها ان تلقى مصيرها وقدرها كما رددت غالباً. والمشكلة انها كانت قد التقت بالثوب نفسه. وشكّت كاترين في ان الثوب قد لا يروق لكوين. وظلت الخالة ايلينور هي مصدر خوفها الوحيد. ومن رغبة دبرا في زيارة مكان ما قبل عودتهن الى حيث ينزلن في مدينة لندن المحاطة بالضباب. واراحتها لندن اكثر من باقي المدن. والى ذلك لم يبق امامهن ما يمتعن به أنفسهن به سوى ركوب الخيل الى كاتماندو.

وسعت كاترين جاهدة طوال الشهور الماضية الى ان تكتم سرها عن صديقتيها العزيزتين. وعلقت بها ذكرى كوين كما رائحة عطرها المفضل (كالين) وهو من انتاج جين باتو. وانتابها القلق بادىء الأمر لأن عطرها ذكّرها بكوين الذي ارسلت له في مستهل الرحلة الف بطاقة بريدية من مختلف الأماكن الجميلة التي زارتها

علاوة على عدد وافر من الصور ومنها صورة مضحكة لها وقد ركبت جملاً ووقفت امام تمثال ابي الهول. والظاهر انها لم تلفت انتباهه اذ لم يكتب سطراً واحداً للتعليق على المنظر. وكانت الخالة ايلينور تعلل اهماله بالقول:

- نحن اللواتي نقضي عطلة خارج البلاد لا كوين.

وفيما كانت وسط غابات الصنوبر الرائعة في اوروبا، اشتهت فجأة ان تحرق بعض ابر الصنوبر أو اوراق الصمغ الزكية الرائحة. لقد حان الوقت لتعود الى الوطن خصوصاً وانها امتلأت خبرة ومعرفة واسعتين. أمّا الخالة ايلينور فقد اخذت تستعيد شبابها. واسترجعت دبرا بعضاً من رصانتها. كما قررت السيدات الثلاث ان يتمتعن بتسريحة شعر جديدة من محلات تزيين الشعر كاريتا. ولم تتأكد كاترين من اعجابها بتسريحة شعرها هي لأنها اظهرت هيكل وجهها العظمي وتألق معها شعرها الفتان. ولم يعد بامكانها الاختباء وراء شعرها لأن التسريحة تلاءمت مع تركيب رأسها وشكله.

وتنبهت احياناً لحسنها ومظهرها في المشي والجلوس وبرودتها. وفي أوقات اخرى كانت عقارب الساعة تعود الى الوراء حين تفقد ثقتها بنفسها. وأغلب الظن ان كوين سيكون قد تزوج حين يحين موعد عودتها الى استراليا. الا انه لم يلمح الى مثل هذا الأمر في رسائله الى الخالة ايلينور. ولم تجرؤ كاترين على استيضاح الأمر من الخالة ايلينور. ولم تقل الأخيرة شيئاً عن الموضوع مما يعني ان اسوأ الاحتمالات لم يحدث. ووجدت بعض الصعوبة في الا تسأل الخالة ايلينور ان تقرأ لها الرسالة الغريبة التي انتظرتها، والموجهة اصلاً الى الخالة ايلينور. والحقيقة ان الخالة قرأت مقتطفات منها دون انتباه.

ولو استطاعت ان تقرأ ما في قلب كاترين لأسمعتها الكثير مما في الرسالة. والغريب ان الخالة ايلينور كانت تتمتع بحيوية عظيمة وعزم على الظهور بمظهر السيدة الشابة والنشيطة وهي في الستين من عمرها. وصممت اكثر من رفيقتيها الشابتين ان تستمتع بكل دقيقة

من ترحالها. وأدركت الخالة ايلينور معنى ان يكون العالم في متناول يدها وهي الجوّالة التي لا تتعب والتي لم يتوقع احد ان يراها في هذه الحال بعد ملازمتها مندلا سنين طويلة. ومع ان الفتاتين استبعدتا الجدية عن مداعباتهما، فانهما مازحتا الخالة ايلينور قائلتين انها قد تخطب سريعاً الى احد ابطال روايات كبلنغ (شاعر وروائي انكليزي) في الفندق الذي نزلن فيه في لندن وذلك بعد ان يكون قد تأملها في كل دقيقة قضاها بقربها وسر بنظرتها المضحكة عن المصير الانساني وملاحظاتها الساخرة القاسية. على انه لم تكن للخالة ايلينور اي رغبة في تجديد المعارف القديمة مع العلم ان بريق عينيها ولون وجهها كانا كافيين لكشف مسرتها بتقدير الرجال لها. الا انها تمتعت بالحرية وتمسكت بها... الى أن حان وقت العودة الى المنزل.

تساقط الثلج في نصف الكرة الشمالي. لكنهن حين حطوا في داروين او مدخل قارة استراليا، وجدن المناطق الاستوائية تنعم بشمس محرقة. وعبق الجو في ارض النيلوفة (نبات استوائي) بالرطوبة وقد اكتظت انهارها بالتماسيح، فيما توافرت في بحيراتها الواسعة وروافد انهارها الراكدة الجواميس وغربان العقق الطويلة الذيل والبط البري. وعانت عاصمة الاقليم الادارية من موجة حر شديدة بينما تموجت شوارعها وحدائقها بالأزهار على انواعها وأشجار البونسيانا القرنية الفصيلة المتخذة للزينة التي تمايلت اغصانها مترنحة من ثقل ازهارها القرمزية اللون والمتدلية كالعناقيد على طول الأغصان.

واستقبلهن لايسي في المطار بجاذبية مبالغ فيها وانشراح شديد جعله يعانقهن بحرارة استاءت منها دبرا نفسها علماً بأن عينيها التمعتا بالفرح وخبّأت هدية فاخرة له بين امتعتها. وبدا لايسي مختلفاً بعض الشيء برباطة جأشه. اما عيناه الزرقاوان فكانتا شفافتين. وظهرت وسامته وهو الشاب اللائق الذي اكتسب هدوءاً عظيماً وامتلك معلومات كثيرة. اجل. ان وضع مزرعة امارو جيد. وقد التقوا

هيلينا كثيراً، ولكن قبل اكثر من شهر... وقد اعربت عن رغبتها ببيع حصتها من المزرعة حين يستقر وضعها القانوني. وكان كوين يعلم بكل ذلك... واضطرت الخالة ايلينور ان توقفه عن الحديث حتى تتسنى لهن فرصة للراحة قبل استئناف طيرانهن الى مندلا.

ورجعن الى مندلا. فأحست كاترين بالسعادة ونعمة الهدوء. وكاد الجميع يظنون ان كاترين تستعد للانطلاق في سفر جديد ينقلها هذه المرة الى الشرق. لكن الجميع كانوا الليلة سعداء ومتحمسين. فلم ينقطع خيط الحديث بينهم فيما قدمت كل الهدايا وأبديت ملاحظات الاعجاب بها. على ان احداً لم يتناول موضوع المال الذي انفق خلال الرحلة. وخلال العشاء انحنى كوين الى الأمام وقد بدا رائعاً بقامته السمراء ونحول جسمه الملحوظ. وأصغى باهتمام الى كل ما روت السيدات الثلاث عن رحلتهن. وتنقلت عيناه السوداوان بينهن جميعاً غير انه رمق كاترين بنظرات ساخرة.

وتجسدت الحلاوة كلها في كاترين التي اظهرت انضباطاً وأناقة فائقين. اما دبرا، فتألقت الليلة بملابسها الصفراء وعينيها الخضراوين الواسعتين الثابتتين ومجلسها الصامت تحت اضواء الثريا الخافتة. وغابت السمرة عن وجهها الذي رفع شعرها عنه ليظهر وجنتين بيضاوين بياض اوراق الزهور. وانعش مجرد النظر اليها القلب والعقل. وغرقت كاترين في احلام اليقظة لتقطع تفكيرها بين حين وآخر ببعض الجمل حتى لا يظنها الساهرون انها غفت ونسيت نفسها مراراً وهي تنظر الى كوين بعينيها المشبعتين حباً وطموحاً.

من المستحيل ان تكون قد ابتعدت عنه ولو للحظة. انه لا يزال كما هو بغروره المعروف، وتمسكه بالحرية، وانحناءة رأسه المتعجرفة، وتضييق عينيه مثلما فعل الآن حين وجه اليها سؤالاً باسلوبه المثير. انه رجل جذاب سحرها وشدها اليه حتى قطعت جملتها ونسيت ماذا ارادت ان تقول. وشاء القدر ان يرأف بها. فتدخلت الخالة ايلينور وانهت القصة التي بدأتها وسط ضحك لايسي.

وبدت عينا كوين وكأنهما تسخران منها طوال وجبة العشاء الشهية. هل نضجت ام لا؟ وكلما حدثها، لفظ اسمها بتمهل مركزاً عينيه على فمها وكتفيها. اضطربت، وفقدت السيطرة على نفسها وسلوكها اللائق مما دفع الخالة ايلينور الى طلب الايواء الى الفراش باكراً. لقد سافرن آلاف الكيلومترات. وها هن قد عدن الى المنزل حيث شعرن ان اركانه وساكنيه يرحبون بهن ترحيباً حاراً.

لكن كاترين لم تستقر حتى بعد دخولها غرفتها. تنقلت في الحجرة على غير هدى بينما ارتدت كامل ملابسهاوعبثت بعقد الأوبال المتدلي من عنقها بشرود. ولكن، ماذا حدث لخزانة عرس ايما؟ لقد اختفت. ولم تنتبه هي للأمر بسبب فوضى وصولهن الى مندلا. وحل محل خزانة العرس عند طرف السرير الواسع منضدة صغيرة طعمت بالصدف والعاج ووضع فوقها اناء مليء بزهور الاقحوان الصفراء. وشعرت بالحرمان وكأن احدهم قد انتزع منها شيئاً تتوق اليه. لقد كان من المحتمل ان تتوصل مع ايما الى ترتيبات عملية مع ان خزانة العرس تركت اثراً سلبياً على نفسها. انها ترغب بمحادثة كوين في الحال!

واستدارت لتنظر الى نفسها في المرآة: من تراها كانت تخدع؟ لم يكن بمقدورها ان تغفو اذا لم تكلمه على انفراد. ولكن، هل كانت خطوتها تلك حكيمة؟ الم تتعلم شيئاً، ام تراها قدّر لها ان تلح عليه الى الأبد؟ بدا ذلك صحيحاً فيما اندفعت من باب الغرفة وهي لا تشعر بالخوف مع ان الثريا المعلقة في الممر كانت مطفأة. هل تأخرت، فكان قد استلقى في فراشه؟ لا بد ان تستأنف مندلا عملها المعتاد صباح غد، الأمر الذي يحتم عليه النهوض مع خيوط الفجر الأولى.

وانطلقت عبر الممر ملقية نظرة خاطفة على صورة ايما المعلقة في طريقها. وكانت دعامات الجدار مصنوعة في ظاهرها من الكهرمان. فتمسكت كاترين بالجدار فيما هبطت السلم وقد شعّت عيناها

بالذهول تحت الضوء الخافت. وأجفلها صوته فتراجعت الى الوراء وهي تضغط بيدها على قلبها كإنما طلب اليها ان تلتقط شيئاً مرمياً على الأرض.

- اعتقد يا كاترين انك تعرفين ان الوقت قارب منتصف الليل.

وأحست انها لن تستطيع الرد عليه طوال حياتها لأن نبرة صوته الجميلة افقدتها ثقتها بنفسها وجعلت مخاوفها تتغلب على مشاعرها وتشعرها بانها منبوذة. لقد ادركت هذه الحقيقة طيلة حياتها. الا انها لم تقدر على تحملها. وركزت عينيها الكبيرتين عليه، فيما شكّل الضوء المنبعث من ورائها سحابة فضية وذهبية اللون فوق شعرها. وبدت الشابة مسمرة في مكانها. يا الله كم كانت تحبه! اكثر من اي شيء آخر في العالم! وسألها بنبرة توحي بانها كانت تلازم تفكيره ومخيلته:

- كاترين؟

اجابته وقد انقطعت انفاسها:

- لم اتغير قط. دعني اخبرك الآن فوراً لتضع ترتيبات معينة تراها مناسبة. انني لا استطيع تحمل المزيد.

رفع حاجبيه الأسودين متندراً. وقال بصوت لطيف ومريح:

- وكذلك انا. ان حبي لك لعظيم ولا يحد. وبامكانك التأكد من انك لن تتركينني بعد اليوم. ان ستة اشهر كافية لأي رجل حتى يختبر مشاعره. وهي كافية لي بالتأكيد. وها قد نفدت مشاعري السامية. تعالي اليّ يا كاترين لتري كم تظاهرت بالبرودة في هذه العشية.

اطاعته دون تردد، وأحسّت انها عادت الى مسكنها وبدأت حياتها من جديد.